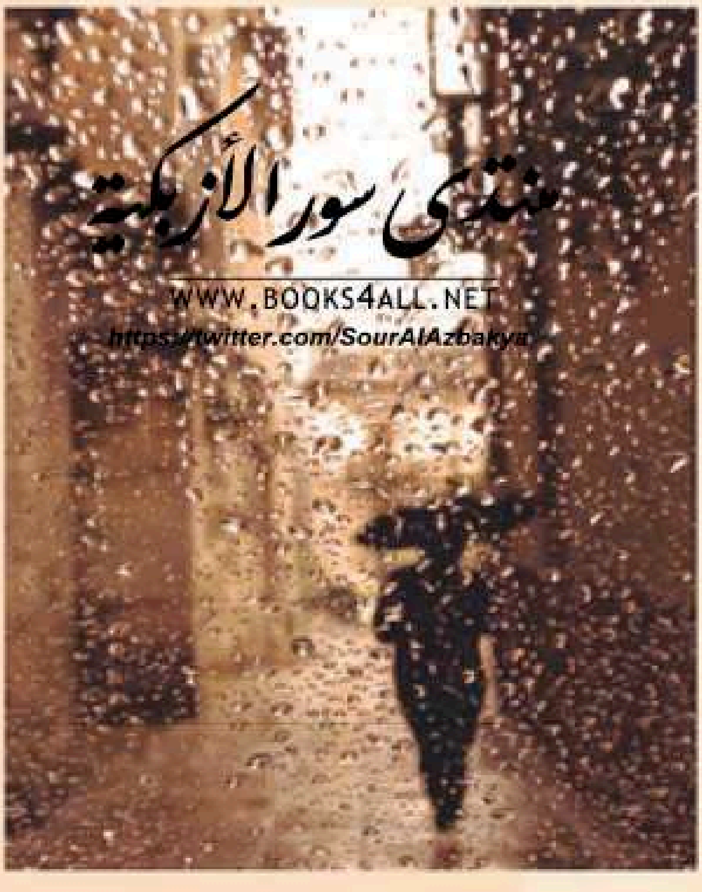
أحمد بن سعد أبو حيمد

نحو المجهول

يوميات طالب سعودي في لندن



العبيكان
Obeikan

أحمد بن سعد أبو حيمد

نحو المجهول

يوميات طالب سعودي في لندن

العبيكان
Obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو حيمد، أحمد بن سعد

نحو المجهول./ أحمد بن سعد أبو حيمد. - الرياض، ١٤٣٠هـ

١١٦ ص: ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٩-٧٥٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- أبو حيمد، أحمد بن سعد - مذكرات

٢- المقالات العربية - السعودية

أ- العنوان

ديوي ٨١٨،٠٣٩٥٣١ ١٤٣٠/٢٣٩١

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٢٣٩١

ردمك: ٩-٧٥٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أيام الغربة والمطر والمرض

إلى أيام من عمري لن تعود أبداً

إلى أيام الدراسة في لندن

بحلوها ومرها...



ملاحظة للقارئ

الواقع هو صفة هذه الذكريات، ولهذا فإن شخوصها وأحداثها في الإطار الذي حددته هذه الذكريات من حيث الزمان والمكان حقيقة ثابتة وليست نسجاً من الخيال.



المحتويات



مقدمة

كان حلمي وأنا أدرس في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية جامعة الملك سعود الابتعاث للخارج، وتحضير درجتي الماجستير والدكتوراه، ظل هذا الحلم يراودني مراراً، وبعد التحاقي بالعمل لمدة تزيد على ثلاث سنوات، حصلت على الموافقة لنيل درجة الماجستير في اللغويات والترجمة من جامعة لندن.

فهذا الكتاب يمثل ذكرياتي ومشاهداتي وانطباعاتي لما رأيته خلال دراستي في العاصمة البريطانية لندن، وهو على كل يمثل تجربة فردية، تقلبت هذه التجربة بين الحزن والفرح والمرض، وبشعور الاغتراب والتحدي والاعتماد على الذات بعد الله ـ سبحانه وتعالى.

يمكن أن أصف هذه التجربة بأنها تمثل رحلة إلى المجهول لمدينة لا أعرفها، رحلة إلى اكتشاف المجهول من ذاتي وأبعادها من خلال

تقلباتها على شواطئ الغربة، بل هي رحلة تمثل تحدياً كبيراً للعيش في مجتمع مجهول يخالف المجتمع الذي نشأت فيه في اللغة والعادات، والتقاليد والنظم المعيشية المتعددة.

والحقيقة أنني واجهت عدة معضلات من حيث الطريقة المثلى لصياغة تلك الذكريات وكتابتها، فالأحداث كثيرة، وهي ممزوجة بين مشاعر الفرح والمرض و الحزن والحنين إلى الوطن، وجميع تلك المشاعر والذكريات والمواقف تتزاحم في ذاكرتي. بعد حين، رأيت أن أجعل رحلتي إلى لندن مقسمة إلى عدة موضوعات وكل موضوع يحمل مواقفه وانطباعاته، تحدثت عن معاناة البحث عن سكن، والحياة التعليمية، ثم محاولة تكيفي في الحياة اللندنية، بقدر استطاعتي، حاولت أن أرسم صورة للمجتمع اللندني بحسب ما رأيته، وذكرت مشاعري تجاه الصيام في الغربة لأول مرة، و مرور العيدين عليَّ خارج الزمان والمكان اللذين تعودت عليهما في مرور مثل هذه المناسبات.

ينبغي أن أنبه القارئ الكريم إلى أن انطباعاتي عن هذه المدينة وأهلها لا تمثل دراسة عميقة للمجتمع اللندني، بقدر ما هي انطباعات إنسان عاش فيها، وهو يخالفها في الدين، ويتفق معها في بعض العادات.

وما الدافع من وراء سرد هذه الذكريات؟ سؤال قد يطرحه أحدكم، وأجيب: أن الدافع وراء ذلك ليس البكاء على أطلال بقايا الزمان والمكان في لندن، بقدر ما هي رغبة شخصية في نقل تجربة واقعية يستفيد منها من يريد الدراسة في الخارج، فلنا في تجارب غيرنا الكثير من الدروس والعبر، وهي مسلية لآخرين، خاصة لمحبي الترحال والسفر.

أما الدافع الآخر. فهو أنني كنت أُقلّب أوراقي، فظهر لي الدفتر الذ
كتبت فيه هذه الذكريات، كانت حالته تثير الشفقة. فشعرت أن جانب
مهماً من حياتي سيكون طي الكتمان والضياع، ولهذا قررت أن أعيد
إحياء تلك الذكريات وحفظها ممثلة في هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

كما أن نشر هذه الذكريات يشجع من خاض التجربة نفسها في أ
مكان في العالم أن يكتب تجربته، حتى نقف على تجربة أخرى تجا
الاغتراب، والحياة، والصراع الذاتي من أجل إثبات الوجود والبقا
وتحقيق الحلم.

أحمد أبوحيمد
الرياض 1429هـ
saada2000@hotmail.com





البداية: الفراق والألم يلتقيان

تململت في مكاني وتعبت...تعبت من حالة اللاوعي والهروب القسري من كل شيء كان يحيط بي، لأجدني محاطاً بأكوام من الغيوم. فتتجمع لحظات عمري في لحظة تأمل...أحاول أن أتشبث بإحداها ولكنها تفلت مني...فأنتقل فجأة إلى صفحة محفورة في ذاتي. لم تزلها الأيام، ولم أنسها. ومن ثم أشعر بالوحدة.

أتريث عندها، وعيناي تجوسان الفضاء الممتد في كل ما حولي بلا انتهاء عبر نافذة صغيرة، وأحدث ذاتي. أتساءل عن جدوى التأمل في شيء مضى، ربما أحياناً لا نملك التحكم في ذواتنا، بل هي التي تسيرنا وفق رغباتها إلى حد الغرابة. فتعيدنا إلى مرافئ نخفق كثيراً في الهروب منها، عندها تنتابنا حالة من الحسرة على ضياع الطريق وبقاء الذكرى والوجع، وتضاؤل لحظات الفرح على سطح أيامها.

ما زلت أشعر بالوحدة...يمتد خيالي حتى يلامس نقطة التقاء الغيوم الكثيفة بزرقة السماء وأهذي.

.هل تريد وجبة دجاج أم لحم؟

سألتني المضيفة، وهي لا تدري أنها أعادتني من مكان بعيد إلى داخل الطائرة، شعرت لثوان بغرابة اللحظة، عندما أدركت أنني وسط جموع مسافرة، أخذت وجبة دجاج، ورحت آكل بنهم كبير: لزوال التوتر والقلق، فهذه وجبتي الأولى، ولم أتناول شيئاً منذ الصباح، وقد كنت البارحة أتقلب في فراشي، أرجو النوم أن يأتي ولكن مشاعر القلق كانت تبقي عيني مفتوحتين، وعقلي يطوف أرجاء العالم.

عندما استيقظت صباح هذا اليوم، لم أكن أشعر بالجوع، كل مشاعري اليوم اختصرت في القلق الذي تعاظم في روحي، هو امتداد للقلق الذي بدأ معي منذ البارحة، ففي هذا اليوم كانت للخطوط الجوية العربية السعودية رحلة معتادة إلى لندن، أما بالنسبة لي فالأمر مختلف تماماً، فاليوم بداية رحلتي نحو المجهول، ولم أدر أي مشاعر رافقتني منذ الاستعداد للسفر، أهو الإحساس بالمسؤولية والإثارة ؟ أم هو الشعور بالخوف من الغربة و الإخفاق، أو كلاهما معاً ؟ هذا المزيج من الشعور ذكرني بما كان يشعر به مارلو، بطل رواية Heart Of Darkness (قلب الظلام) للروائي جوزيف كونراد، لقد كان يشعر قبل سفره نحو أدغال أفريقيا، وتحديداً إلى الكونغو، بشعور يجمع بين الخوف والاشتياق.

لبست بدلة وربطة عنق، نزلت وقد سبقتني حقائبي إلى السيارة، تَجَمَّع بعض إخوتي الصغار والأخوات عند الباب، ولوّحت لهم مودعاً،

كم تمنيت لو أنني لم أر أمي في زاوية المنزل وهي تبكي، تريد أن تودعني ولكنها تصارع نفسها وخطاها. فتتقدم خطوة صغيرة إلى الأمام، تريد أن تأتي وأن تلقي عليَّ نظرة الوداع الأخيرة. لكنها تغالب خطاها فترجع.

وصلت إلى مطار الملك خالد الدولي، وبعد تسليم حقائبي ودفع قيمة الزائد منها، أخذت بطاقة صعود الطائرة. كان موعد إقلاع الرحلة الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، ولما كان الوقت ما يزال باكراً على موعد الإقلاع جلست مع والدي و إخوتي في «الطابق الثاني»، أخذوا يتناولون الشاي والقهوة وبعض «الكيك». أما أنا فلم أكن أشتهي شيئاً: فنفسي في اضطراب، وقد كنت متوتراً غاية التوتر، توتراً جعلني أذهب إلى دورة المياه بين فترة وأخرى. فجأة أعلنت الخطوط السعودية عن رحلتها..زاد اضطرابي...قبلت رأس أبي مودعاً بحرارة. وعانقت إخوتي دون أن أستطيع التفوه بأي كلمة، كانت نظراتنا كفيلة بأن تحكي كل مشاعر الفراق والمودة معاً.

دخلت الطائرة، وجلست بالقرب من النافذة، كنت أرى بعض المسافرين يملأون المقاعد، وملاحو الطائرة يقومون بإرشادهم. بدأت الطائرة تمشي ببطء على المدرج. وأنا أحاول أن أجر من أيامي وذكرياتي لتبقى معي في غربتي. بعدها أقلعت الطائرة متوجهة إلى مطار (هيثرو) بلندن، التفتُّ إلى الوراء لأرى آخر لمحة من الرياض، التي بدأت تتوارى عن ناظري شيئاً فشيئا...أتنهد بعمق لحظة خوف وفراق، لأول مرة أحس أنني أنفصل عن الرياض، المدينة التي احتضنتني منذ أن كنت صغيراً إلى هذا اليوم. و أتوجه نحو مدينة

أخرى لا أعرفها، لحظة انفصال لم أكن أتوقعها أبداً، وهذا مما زاد في وجعها.

عدت أكمل غدائي بعد حالة صمت طويلة، تمر المضيفة بين الممرات، وهي تقول: water....water...water قفز إلى ذهني مشهد في فيلم (بعيد وناءٍ) Far and Away. المشهد يتحدث عن علاقة الإنسان بالأرض، كان والد بطل الفيلم جوزيف يقول له: «الإنسان لا شيء بدون الأرض...هي روحه...هي كل شيء».

كنت آكل ببطء شديد، فعلى الرغم من أنني أجريت عملية إزالة اللوزتين منذ أسبوع إلا أنني ما زلت أتألم، كلما حاولت ابتلاع الأكل، لقد أشعرني المرض بحالة من الضعف لأول مرة أعيشها بواقعها وحقيقتها، قال لي الطبيب: «سنجري العملية لك صباح الغد»، أخذت أرتجف ونبضات قلبي تزداد، لم أدر كم من الوقت مضى. ولكنهم أيقظوني في تمام الساعة الخامسة فجراً.أخذوني محمولاً على سرير متحرك نحو غرفة مليئة بالممرضات والأطباء والأجهزة. بعد ذلك رأيت أنوار سقف غرفة العمليات تتمايل. وبعد ثوانٍ لم أعد أعرف أين أنا، أفقت على شعور ألم الجرح ودرجة البرودة تزداد، والدم من فمي لا يزال يخرج. مرّ يوم الاثنين كئيباً ومثله يوم الثلاثاء. أطلّت عليّ الشمس في غرفة المستشفى بأشعتها صباح يوم الأربعاء، رأيت الحياة فيها، رحت أتأملها وأتأمل أشياء الغرفة، فلقد استقبلتها بفرح كبير، شعرتُ أنها لبردي دفئاً، ولوحدتي صديقاً جاء يواسيني من غير موعد، كان مرضي أول من لامس إطلالتها، واستقبلها بقلب تضطرم ناره في الجوف حزناً وكدراً. الدقائق والساعات والأيام أصبحت تمضي ببطء.

أطل عبر نافذة الطائرة مرة أخرى، فأرى الغيوم ما تزال بصحبتي، أخذتُ أفكر بما عليَّ أن أقوم به عندما أصل إلى لندن، قلبت الكثير من الجرائد. و بعد تحليق في الجو قرابة ست ساعات بدأنا نغوص في أكوام كبيرة من الغيوم ونحن نهبط تدريجياً، وبعد عدة دقائق بدأت ملامح مدينة لندن تظهر لنا شيئاً فشيئاً، رأيت منازل متراصة على شكل أكواخ وأسقفها مطلية باللون الأحمر ومساحات شاسعة خضراء.

بدأ قلبي ينقبض، ولازمني هذا الشعور في كل مرة أزور فيها لندن، ولا أدري مصدر هذه المشاعر؟!! وقفت مع مسافرين كثر. وبي لهفة التطلع إلى مدينة كنت أحلم برؤيتها ماثلة أمامي بعدما ملت رؤيتها في خيالاتي وأحلامي، أنهيت إجراءات الدخول. ولم يستغرق الأمر سوى دقائق معدودة لوجود أكثر من عشرين موظف جوازات، وهم بملابسهم المدنية المعتادة، لإنهاء تأشيرات الدخول لجموع غفيرة من المسافرين. شعرت لحظتها أن لندن تمد يدها لترحب بذلك القادم الغريب، هي لا تشبه بعض المدن التي تصلها وتصطدم بموظفي الجوازات، وهم يرتدون الزي العسكري. وكأنك قادم إلى بلد يعيش تحت وطأة الحرب.

أخذت أنتزع حقائبي واحدة تلو الأخرى من السير الكهربائي وما أكثرها. ثم رحت أدفع عربتي، وقفت حائرا بين ممرين: الأول باللون الأخضر والآخر باللون الأحمر مكتوب عليه Things to Declare ولجهلي بالأنظمة، ولأنني كنت أحمل جهاز تلفزيون و فيديو بالإضافة إلى حقائبي الأخرى، قررت المرور مع الخط الأحمر، سألني موظف

الجمارك عن محتويات هذه الحقائب والكراتين الكبيرة. أجبته: «إنها بعض الأجهزة ولا أنوي بيعها، والباقي أغراض شخصية».

أخذ ينظر فيها، وما أن رأى جوازي حتى سمح لي بالمرور دون أن يتفحص حقائبي أو حتى ينظر في صفحات جوازي. خرجت من الممر وأنا أدفع عربة ثقيلة تحمل حقائبي، لأصطدم بالعديد من الوجوه والألوان الغريبة عني، ناس يتحدثون بلغات لا أعرفها وآخرون يبحثون عن أشخاص مكتوبة أسماؤهم في لوحات صغيرة بيضاء يحملونها، شاهدت فتاة تستقبل عشيقها فالتصق جسداهما معاً، لاحظت أيضاً أن عدد النساء كثير، شعرت لحظتها أن النساء يختفين في الرياض، ولا يظهرن إلا في لندن.

أبلغت والديّ بالوصول، بعدها خرجت من المطار، وما إن خرجت حتى صدمني البرد على وجهي، فقد كانت درجة الحرارة 16 درجة مئوية، وهي لواحد من سكان الرياض تعد باردة، ولا أثر للشمس، غصت بين هذه الجموع الخارجة من الصالة، تجاوزتهم، كنت أبحث عن سيارة أجرة، فلوح لي أحد السائقين أن أقف مع الواقفين في آخر الصف.

يالك من مدينة يا لندن، فإلى الآن تكشفين لي في كل لحظة عن جزء من وجهك، وأزداد إعجابا به، يا ترى كيف يكون عندما أراه كاملاً؟

مضت سيارة الأجرة لتطوف بي أول لقاء لي مع طرقات لندن، كانت سيارة الأجرة بشكلها وطريقة تعامل سائقها مختلفة عما هي عليه في الرياض، فلونها أسود، وشكلها مختلف عن بقية السيارات

الأخرى، وسائقها يساعدك في حمل الحقيبة ووضعها داخل السيارة، بعدها تغلق الباب وتربط الحزام ثم تخبر سائق الأجرة عن وجهتك، حيث بعد ذلك يقوم بتشغيل جهاز التسعيرة، في الرياض يقف سائق (الليموزين) الهندي بعدما تلوح له بيدك، يفتح نافذته وتبدأ تساومه، وما إن تركب حتى تصك أنفك رائحته المميزة، التي تقنعك بدون أدنى شك أنه لم يستحم منذ شهر، وترى قميصه الأبيض وقد تحول إلى اللون الأصفر من كثرة الزيوت المتساقطة عليه من شعره، ولا ينزل أبداً ليساعدك في حمل حقائبك.

كان سائق الأجرة يقودها مسرعاً فتمر بي كثير من المشاهد، فشلت في إبقاء أغلبها في ذاكرتي، بعد حوالي ساعة وصلت إلى محطة (فكتوريا) قرابة الساعة السادسة مساءً بالتوقيت المحلي لمدينة لندن، وجدتها محطة سفر كبيرة، ومليئة بالخطى المتسارعة للمسافرين القادمين والمغادرين، مليئة أيضاً بالمطاعم ومحلات الزهور والمجلات، دخلت أحد المكاتب الذي يقدم خدماته للمسافرين، فطلبت من إحدى الموظفات أن تحجز لي فندقاً، ناولتها جواز سفري و حجزت لي غرفة مفردة في فندق (لوردز هوتيل). عندما وضعت حقائبي في غرفة الفندق، خرجت لأكتشف هذا العالم الجديد، كم كنت سعيداً عندما مررت مصادفة بمحلات تبيع الصحف والكتب العربية والمطاعم التي تبيع الشاورما وساندويتشات الفلافل، شعرت بالانتماء نوعاً ما، لقد أحسنت تلك الموظفة الاختيار عندما علمتُ في اليوم التالي أنهم يسمون هذا الشارع الذي تكثر فيه الملامح العربية (كوينز واي)، وربما ملامحي العربية جعلتها تختار لي هذا المكان عمداً برغم اتساع رقعة لندن وكثرة فنادقها.

في صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى مقر السفارة السعودية في (كورزن ستريت) وسجلت الجواز، حدثني أحد موظفي السفارة عن الدراسة في لندن أنها عسيرة، فالحياة المعيشية فيها غالية جداً، كما لا يوجد بها نادٍ للطلبة السعوديين، وعدد السعوديين المبتعثين فيها يعدون على الأصابع، خرجت وأنا أفكر فيما سمعت، شعرت بأني أمام تحدٍ كبير منذ اليوم الأول لقدومي إلى لندن، توجهت إلى الملحقية الثقافية السعودية في (بلقريف سكوير) وسجلت اسمي ضمن المبتعثين السعوديين، وصدرت لي بطاقة طالب مبتعث فيها رقمي الخاص، ونصحوني بأن استخدم هذا الرقم في كل مراسلاتي وتعاملاتي مع الملحقية.

وبما إنني انتهيت من إنهاء إجراءات التسجيل بسرعة، ومازال لدي كثير من الوقت، طرأت لي فكرة الذهاب إلى أقرب محطة مترو أنفاق مشياً على الأقدام، فتحت الخارطة، كان المطر ما يزال يتساقط في هذه اللحظات، معظم المارة يمشون وهم يمسكون بمظلاتهم خشية الابتلال بالمطر، وأنا مازلت أمشي وأتأمل في كل ما حولي...المباني المرتفعة ذات الألوان المتعددة...الناس العجالى في خطواتهم...السيارات...الحافلات الحمراء...أوراق الأشجار التي تتراقص بسبب المطر، ازداد هطول المطر فخفَّ عدد المشاة على الأرصفة، فضلَّ الكثير منهم الانتظار تحت سواتر المحلات أو مظلات الكراسي المخصصة لوقوف الحافلات، آخرون فضلوا الاختباء عند مداخل محطات المترو، أما أنا فكنت أمشي في طرقات غريبة وأشرب المطر، وبي نشوة فرح، مطري ليس مثل مطر السياب الذي يبعث الحزن، مطري يغسلني من بقايا الصفحات الرمادية في حياتي،

ويجعلني أعيش كائناً آخر، إنسان يولد من جديد، بحلم جديد وبروح أخرى، أضيع بين جموع مسافرة في محطة (نايتس بريدج).

* * *

سيارات تتجمع بعضها فوق بعض... جموع من البشر يلتفون بعضهم حول بعض، يحملون الرعب وقطرات من الدماء في وجوههم... صوت سيارات إسعاف يدوي في كل الأرجاء... ضباط شرطة يرشدون الناس للتوجه إلى الطريق الآخر، سيارة تندفع نحوي مسرعة... تقترب نحوي... تصدمني، ينتفض جسمي، فانهض فزعاً وأنا أسمع ضربات قلبي في جميع أنحاء جسدي، وجدتني في غرفتي الضيقة بالفندق وقد نمت بالملابس نفسها التي كنت أرتديها منذ الصباح وحقائبي المبعثرة تحيط بي.

أنهض... أنهض بتثاقل... يقتحمني فجأة حديث ذلك الموظف في سفارتنا عن صعوبة الحياة في لندن وغلاء العيش فيها، شعرت بثقل يتمرد على روحي، ويزيد من خوفي تجاه قدري المجهول هنا، كأنني لم أستطع الوقوف... أجر قدمي وجسدي المنهك كمصاب في ساحة قتال، وقد تخلى عنه الرفاق، أخطو خطوتين أو ثلاث عن عشرين خطوة نحو النافذة، أزيح الستارة، برودة زجاجها تلتصق بكفي، وجدت كل شيء يدمع بصمت، والسماء تحولت إلى لون أزرق قاتم وأنوار الشارع الصفراء تحاول أن تبعثر هذه العتمة بإخفاق واضح.

في صباح اليوم التالي، شرعت في البحث عن سكن، ورغبت في أن يكون قريباً من الكلية حتى أستطيع المشي إليها دون الحاجة

إلى الحافلات أو مترو الأنفاق، قررت أن أبدأ البحث في نزل الطلبة المنتشرة في لندن، فليس لي رغبة في السكن مع عائلة، كما أنني لا أستطيع دفع أجرة شقة وحدي وقد عرفت أنها تصل في الأسبوع إلى 400 جنيه إسترليني، ذهبت أولاً إلى نزل للطلبة Victoria League Hostel ، في ليستر سكوير، أجابتني مسؤولة السكن أنه لم تبق غرفة منفردة، فمعظم الطلبة قد حجزوا غرفهم منذ فترة، ذهبت إلى نزل آخر غير بعيد عن النزل الأول، وهو Polish Hostel لكنه أقرب إلى شارع كوينزواي، عندما دخلته قابلني رجل مسن يرتدي «بدلة» بنية اللون في مثل عمره، وقبعة دائرية، بعدما ألقيت عليه التحية وسألته فأجابني:

- نظام السكن هنا يقوم على الخدمة الذاتية، وكما ترى فهو مكان لا يأتيه الطلبة إلا للنوم.

من حديث ذلك الرجل، عرفت لماذا سعر الإيجار رخيص، والمبنى هاجع كأنه بيت لأشباح لا تظهر إلا في الليل، أكمل حديثه فقال:

- ولكنك، مع الأسف، لن تجد غرفة شاغرة الآن، ربما تجدها بعد شهرين أو ثلاثة.

شعرت بخيبة أمل أخرى، فانتظار هذه الفترة لا أستطيعه، والدراسة ستبدأ بعد عدة أيام، بعد ذلك استأذن الرجل في أن يسألني سؤالاً لما علم أنني مسلم، فأذنت له فجاء السؤال:

- هل القرآن لديكم مكتوب بنسخة واحدة؟

- نعم فالمسلمون من اليابان حتى المغرب يقرؤون نسخة واحدة،

وفيه كثير من الأحكام والمواعظ و آداب السلوك والأخلاق وقصص الأمم السابقة.

وحقيقة علت محياه الدهشة، فظل ساكناً، وأنا متأكد من أن شيئاً ما يجول في خاطره، ودعته على وعد مني أن أتصل به في بداية شهر أكتوبر ولم أفعل.

تكرر البحث في اليوم التالي في عدة نزل للطلبة، وانتهى بحثي بالفشل والتعب، عدت إلى الفندق وأنا متعب جداً، ورميت بنفسي على السرير، وأحسست بأنني مقبل على عبء كبير...عبء الغربة...عبء الوحدة،عبء المجهول الذي ينتظرني، كنت أسمع وقع المطر يطرق نافذة غرفتي، فشعرت في تلك اللحظة أنه صديق عزيز، ما رافقني وأنا أسير في الطرقات إلا ليسليني في هذه المدينة الصاخبة، والبرد الذي بدأ يقتات على عظامي، يجعلني أتسربل بالخوف والرهبة من المجهول في أول أيامي هنا.

شعوري بالجوع دفعني للخروج لتناول العشاء، مررت على عدد من المطاعم، ولغرابة رائحتها تركتها، مررت على مطعم آخر يعلق الدجاج بلون بني داكن، يراه كل من يمشي على الرصيف الملاصق للمطعم، ولم أحتج إلى وقت طويل حتى قررت رفض الدخول إلى هذا المطعم الصيني، واصلت طريقي باتجاه محطة مترو أنفاق كوينزواي، فمررت على مطعم عربي صغير، يقدم ساندويتشات فلافل وشاورما، ولحسن حظي كان الباعة فيه من العرب، شعرت بفرحة وشيء من الانتماء، ونسيت إخفاقات البحث عن السكن التي لازمتني طوال ذلك اليوم.

قبل أن أنام قررت أن أتوجه في يوم غد إلى الكلية، استسلمت للنعاس والتعب، وسرعان ما نمت هذه المرة سريعاً، عندما استيقظت شعرت أنني ما نمت إلا ساعتين أو ثلاث، ولكني عندما نظرت إلى ساعتي كانت عقاربها تشير إلى قرابة التاسعة والنصف، تناولت إفطاري على عجل ثم خرجت، كانت الغيوم الرمادية أول من صافحني من لندن هذا الصباح، فمددت لها يدي بكل فرحة وابتهاج، دقائق وأنا أمشي وبدأ المطر ينهمر، ياله من صباح آخر مؤتلق بالمطر، أكتب في صفحة أيامي: «أحب المطر»، من يراني يعتقد أنني ارتديت ملابسي بعد الاستحمام مباشرة من غير أن أجفف جسدي، لا تهمني نظرات الاستغراب تلك، رغم كرهي لعيون تحدق في الآخرين، وتتفرس في ملامحهم.

2 عندما وصلت محطة (بايزووتر) وقفت مع الواقفين في آخر الصف، وعندما حان دوري، سألت بائع التذاكر عن كيفية الذهاب إلى محطة (روسل سكوير)، اشتريت التذكرة ووضعتها داخل صندوق إلكتروني أضاء لي باللون الأخضر، عرفت أنه بإمكاني أن أعبر، دفعت السياج الحديدي ثم عبرت الممر، نزلت عبر الدرج ورحت انتظر القطار.

كانت المحطة تغص بالجموع المتراصة على الرصيفين: رصيف القطار القادم ورصيف القطار المغادر، ولا يطلب الأمر قدراً من الذكاء حتى تعرف أن بعضهم من السياح، وصل القطار وانفتحت أبوابه، فصعدت ولم يصعد كل من في المحطة، ربما أنهم يريدون قطاراً آخر ذاهباً إلى محطة أخرى، عندما تحرك القطار رأيت وجوه الناس الواقفين على جانبي المحطة وكأنها خيوط مستقيمة بألوان مختلفة تتسابق بعضها مع

بعض. ظهرت لي وكأنها أشباه بشر. تذكرت عزرا باوند[1] حين قال:

مظاهر تلك الوجوه في الزحام
بتـلات على غصـن نـدي أسـود.

عندما خرجت من المحطة مررت على متنزه (روسل سكوير) المحاط بأشجار عالية. تخطيته ثم انعطفت يميناً، فظهرت لي الكلية «بطوبها» البني الداكن. وشعارها الذي هو عبارة عن شجرة خضراء، كتلك التي أراها مرسومة في علم لبنان. دخلت كليتي وهي كلية الدراسات الأفريقية والشرقية، التابعة لجامعة لندن ويرمز لها SOAS شعرت أول ما دخلت أنني أرتدي أحسن الملابس وأغلاها، فقد لحظت - وبلا أدنى جهد - أن معظم الطلبة هنا لا يهتمون بمسألة الأناقة والمظهر في اللبس. فالمهم هو التدفئة بغض النظر عن تناسق الألوان. وكنت أعتقد أن الطلبة والطالبات يأتون للجامعة وهم في أحسن مظهر. ولكن الذي اتضح لي عكس ذلك، فلا رسميات في اللبس، أو الحرص على الظهور بكامل الأناقة. ولا يصدق هذا على الطلبة فقط، بل لحظت هذا على أغلب الناس هنا في لندن. عندما كنت أتجول في شوارع لندن، ومتاجرها لتأمين بعض الأغراض وبعض الملابس الثقيلة.

الذي اتضح لي أيضاً، ومنذ الوهلة الأولى التي وصلت فيها إلى لندن، معالم النظام في كل مكان، فالناس تقف في الطابور في المطار

(1) عزرا ويستون لوميس باوند (بالإنكليزية: Ezra Weston Loomis Pound) شاعر أمريكي، ناقد، وموسيقي اعتبر أحد أهم شخصيات حركة الحداثة في الأدب العالمي في أوائل وأواسط القرن العشرين. ولد في 30 أكتوبر 1885. وتوفي في 1 نوفمبر 1970.

وعند محطات الحافلات، والبريد وفي كل مكان، كما أنه يوجد اهتمام بالعمل والجد فيه واحترام المواعيد، والكل مهتم ومنشغل بذاته فقط، فلا أحد يضحك على أحد، ولا أحد يحدق في الآخرين، خاصة داخل الحافلات أو في قطار مترو الأنفاق، ولا أحد يكلم أحداً. تجد كلاً منهم مشغولاً بنفسه فهذا يأكل، وتلك تقرأ صحيفتها المفضلة وأخرى تكتب على أطراف أوراق وضعتها على ركبتيها.



التسجيل في الكلية وعودة البحث عن سكن

في يوم التسجيل داخل الكلية، كنت أقف في صف طويل مخصص لطلاب الدراسات العليا، في الصف الآخر المحاذي لي الذي كان مزدحماً أيضا بطلاب البكالوريوس، رآني أحد الطلبة البريطانيين وقد كان مظهره يوحي لي بأنه مسلمٌ، سلَّم عليَّ وعرَّفني بنفسه، ودار الحديث بيننا، وذكر لي أن يوسف إسلام سوف يلقي محاضرة وأشار بيده إلى مكانها، وعدته بالحضور. وأكملت التسجيل بعدما سلمتهم أوراقي الرسمية المطلوبة، بعدها انضممت إلى إحدى المجموعات التي تقودها إحدى المرشدات للتعريف بالمكتبة، شرحت لنا أولاً طريقة الدخول الآلي إلى المكتبة، ثم تحدثتْ عن أقسامها وأدوارها ونظام الاستعارة والبحث عن الكتب بالحاسب الآلي، وقد عجبت أن مكتبة هذه الكلية وحدها تضم ثلاثة ملايين كتاب، وقد اكتشفت لاحقاً أن بها كتباً لا تعار إلا لساعات معدودة، وهي موضوعة في ركن خصص لها في المكتبة، خلف موظفي إعارة الكتب.

لحظت وأنا أمر في أركان ممرات الكلية وجود صناديق فارغة، يمكنك أن تضع فيها كتبك وبعض حاجاتك من الملابس الثقيلة التي لا تحتاجها داخل الكلية. وإذا أردت استعمال أحدها فليس عليك سوى أن تشتري قفلاً. كما لحظت أيضاً أوراقاً كثيرة ملصقة على الجدران في أماكن محددة كمند مدخل المكتبة و الدرج. وقفت أقرأ بعضها. فإذا هي إعلانات كثيرة عن بيع كتب، أو تصحيح وطباعة البحوث، أو الرغبة في طلب تعلم لغة. والإعلان عن المشاركة في السكن. مع توضيح سعره الأسبوعي. وأقرب محطة مترو أنفاق قريبة منه. كتبت بعض العناوين.

خرجت من الكلية لأجد بجوارها مبنى (ulu) وهو اختصار لجملة: University of London Union هذا المبنى عبارة عن مركز تجاري ورياضي لطلاب جامعة لندن، ففيه ناد رياضي ومسبح كبير، ومكاتب تقدم خدماتها السياحية، ومركز تصوير ومقهى، ومحل تأجير أفلام، مررت على مصرفين هما مصرف(باركليز) ومصرف (ويست منستر) . فتذكرت أن أحد موظفي الملحقية طلب مني أن أنشئ حساباً في أحد المصارف.

دخلت مصرف (باركليز) وانتظرت دوري. جلست أمام موظفة خدمات العملاء . والحقيقة أنني كنت مرتبكاً بعض الشيء: فهذه المرة الأولى التي أجلس فيها أمام امرأة وهي في كامل زينتها . فمجتمعنا محافظ لدرجة كبيرة، فلا يوجد اختلاط بين الجنسين. وفي حياتي اليومية لا أتعامل مع المرأة. وفجأة وجدتني أجلس أمام امرأة عندما ذهبتْ لتحضر بعض الأوراق الناقصة، مسحتُ العرق الذي تكوَّم على جبهتي. بعد ذلك ذهبت إلى تسجيل اسمي في المستشفى التابع

للجامعة، ويقع في مبنى (هوبسون هاوس) في شارع(قوير ستريت)، فالنظام هنا يعطيك الحق في تلقي الخدمات الطبية مجاناً إذا كنت ستقيم في لندن أكثر من ستة أشهر.

في المساء ذهبت لرؤية إحدى الغرف المعلن عنها في الكلية بعد اتفاق مسبق مع صاحبها، كم كنت أود لو أجده مناسباً للسكن فيه؛ لأنه قريب جداً للكلية، كانت الشقة تقع في مبنى ضخم يقع على شارع (توتنهام كورت رود) بالقرب من محطة مترو أنفاق (قودج ستريت) وصاحبها يطلب من يشاركه السكن ليخفف عنه أعباء المصاريف.

عندما فتحت باب المجمع، توجهت صوب المصعد ووجدتني اتخذ قراري فوراً بألا أسكن هنا، فهو مليء بالقاذورات والأوساخ، وقديم جداً يشعرك بأنك في نهاية التاريخ بل في نهاية الحياة، فتح صاحب الشقة التي كانت في الطابق الخامس الباب، وأخذني في جولة داخلها، بها غرفتان يؤجر إحداها وصالة ومطبخ صغير، وجدتها مستهلكة وكل شيء فيها يحتاج إلى تجديد وربما حتى صاحبها، أخذ صاحبها يمتدح بعض الأجهزة التي يملكها، لو كان يعرف ما الذي يدور في نفسي لرفض استقبالي منذ البداية.

بعد خروجي من المبنى، شعرت أني خرجت للحياة، اتصلت وأنا أمشي على صاحب السكن الآخر، واسمه مايك، وحدد لي الساعة السابعة والنصف من صباح الغد لرؤية الغرفة، ولرغبتي في الحضور في الموعد المحدد، كسائر الناس هنا، ولعدم معرفتي التامة بمترو الأنفاق، فقد استيقظت في تمام الساعة السادسة صباحاً من ذلك اليوم.

فتح لي الباب، وكانت هيئته تدل على أنه من أصول هندية، المبنى كان عبارة عن بيت فيه كثير من الغرف، وصاحبه يسكنه و يؤجر كل غرفة منفردة، ودورة المياه مشتركة والمطبخ مشترك أيضاً. راقت لي الغرفة فهي كبيرة، وقيمة استئجارها 70 جنيهاً إسترلينياً في الأسبوع، أي ما يعادل حوالي 490 ريالاً، وهذا لا يشمل فاتورة الكهرباء ولا الأكل ولا غسيل الملابس، وأعلمني بأني إذا أردت الكهرباء فعلي أن أضع نقودا في العداد الذي يعلو بابها، فكل غرفة لها عدادها الخاص. كان رقم المنزل 50 و يقع في (لويد ستريت)، ويبعد عن الكلية 12 دقيقة فقط مشياً على الأقدام، وعلى الفور اتفقت مع صاحبها على السكن لمدة سنة، ودفعت له أجرة أسبوعين مقدماً، وأجر شهر تأميناً على محتويات المنزل.

طلبت من الفندق أن يطلب لي سيارة أجرة عند الساعة الرابعة عصراً، وعند حلول الوقت المحدد بدقيقة رأيت سائقها يقف أمام باب الفندق. هنا درس آخر أراه ماثلاً أمامي في دقة المواعيد واحترام العمل، عندما وصلت إلى مقري الجديد، أخذت أحمل حقائبي وأغراضي بنفسي. هنا عليك أن تحمل أغراضك مهما ثقلت بنفسك، ولا أحد يقدم لك خدمة مجانية، وكل مشغول بذاته، بدأت فعلاً أشعر بالفردية هنا، ولكنها بداية تعلمي لدرس الاعتماد على النفس.

بعدما قاربت الساعة نحو الواحدة صباحاً، حاولت أن أنام، ولم أنم، كانت العديد من الصور تتشابك بعضها مع بعض. تتراقص صور أبي وأمي وإخوتي وطرقات الرياض سراعاً لتختلط مع الزحام في طرقات لندن وحافلاتها الحمراء، ومحطات المترو الجوفية،

ـبت مراراً وأنا أتقلب منتظراً النوم، ولكنه يهرب من عيني، رغم
ـي مجهد كل الإجهاد، كنت أشعر بالبرد يسري في عظامي، لقد
ـانت الغرفة باردة جداً، وهي مثلي لم تستطع مقاومة البرد، طرقت
ـاب غرفة صاحب المنزل في الطابق الثاني، وعندما خرج طلبت
ـنه بطانية لو لهذه الليلة فقط، فأجابني بأن عليّ أن أشتري جميـ
ـغراضي الخاصة بي، وأن هذا ليس فندقاً، نمت تلك الليلة متعباً وأنا
والله - أنتفض من البرد.

في اليوم التالي سجلت عنواني لدى الشرطة، واستخرجت بطاقـ
ـيها عنواني وصورتي وغرض الإقامة في لندن، وبعد الظهر ذهبت
ـلى الكلية، فاليوم موعدنا مع الدكتور محمود في لقاء تعريفي بالقسـ
ـوالطلاب الذين سيدرسون برنامج الترجمة.





نحو البداية

في الكلية، ضغت على زر المصعد الكهربائي، وبقربي عدد من الطلاب والطالبات، وعندما أضاء الرقم (5)، خرجت منه لأبحث عن قاعة المحاضرات التي سأدرس بها، مررت عبر ممرات إسمنتية ضيقة، وإعلانات كثيرة ملصقة بقرب بعض مكاتب الأساتذة، شعرت بالضيق، فما ظننت أبداً أن تكون كلية تابعة إلى جامعة لندن العريقة بهذا الشكل، أجواء تجعلك تشعر بالاختناق من أول يوم دراسي، كنت في الرياض قد بنيتها في خيالي أجمل بكثير مما أراه الآن، لم يكن الفصل بأفضل حال من المشاهد التي مررت عليها منذ أن دخلت الكلية، فالطاولات بيضاء طويلة والكراسي يغطيها اللون الأصفر الذي أكرهه، لأنه دوماً يجعلني أشعر بالانتهاء والرحيل.

دخل علينا الدكتور محمود، وأخذ كل واحد منا يقدم نفسه: أنا أحمد من الرياض، طالب دراسات عليا في مجال اللغويات والترجمة،

كان الفصل يضم عدداً من الطلاب والطالبات العرب، فيما بعد انضمت إلينا جين الإنجليزية وعبد الرحمن الماليزي، وهما من طلاب ما يسمى في نظام الكلية بـ Aerial Studies. وهذا يعني عدم التخصص في مجال واحد، أي أنه يمكن للطالب أو الطالبة اختيار أربع مواد متنوعة في عدة مجالات كالتاريخ والسياسة وغيرها.

بعد انتهاء أول محاضرة، ذهبت إلى سكرتيرة القسم حتى آخذ الجدول الدراسي لجميع المواد. وجدت صورتي مع بقية صور الطلبة في هذا التخصص معلقة على لوحة الإعلانات الكبيرة في مكتبها، سجلت المواد الأربع لي تلقائياً عند دخولي في هذا القسم، وهي: الترجمة العملية، ونظرية الترجمة، واللغويات العامة، واللغويات المقارنة. كانت أيام الدراسة من يوم الثلاثاء إلى يوم الخميس الذي يعد أشدها زحاماً في الدراسة.

وبينما كنت أدون بعض المعلومات، دخل طارق أحد الطلاب المسجلين معي في هذا البرنامج، ولكن القلق كان واضحاً على وجهه.

جلسنا في مقهى أسفل الكلية، وكان متذمراً من كل شيء إلى حد بعيد، حاولت أن أشرح له:

يجب أن ندرك أننا هنا في بيئة غريبة عن البيئة التي عشنا فيها، فليس لنا الحق أن نطالبها أن تتغير حتى تتناسب مع أمزجتنا وثقافتنا، كما أن وجودنا هنا لا يعني علينا أن نتخلى عن العادات التي تربينا عليها في بيئتنا.

ظل صامتاً ولم يتفوه بكلمة، كانت التجاعيد في وجه قد أغلقت كل محاولة مني لإقناعه بمواصلة الدراسة. قلت له محاولاً مرة أخرى:

يا طارق...لا يمكننا أن نغير من الحياة في لندن حتى تتناسب مع الحياة التي نريدها. ولذا علينا أن نتكيف معها. وأن نأخذ منها ما يتناسب مع عاداتنا. ولا نتعدى الحدود التي وضعها لنا ديننا وثقافتنا. أجابني:-

- يا أخي صدقني ما أحد بيحكي معك هون...الأسعار نار والأكل زفت...يا أخي عنّا بديرتي إذا حطيت البندوره في فمي بتنفضخ في (وشي) وجهي.

افترقنا وأنا أعتقد أنني فشلت في تغيير نظرته عن صعوبة الحياة في لندن، أنا لا أخالفه فيما يقول، ولكن لا يجب ألا يكون استسلامنا هكذا سهلاً من أول أيام لنا أمام المجهول من حياتنا، فطموح الإنسان يجب أن يذلل عثرات الطريق وصعوباته.

في طريق عودتي من الكلية، توقفت عند (تيسكو) كعادتي، وهي سوق كبيرة أجد فيها كل حاجاتي، اشتريت بعض الوجبات الجاهزة من الأرز والسنبوسة بالخضار، اعتدت أن آكل مثل هذه الوجبات بعد تسخينها في المايكرويف الموجود في المنزل، فلم تكن لدي الرغبة في الطبخ أبداً، وفي حقيقة الأمر لا أجيده أصلاً.

عندما دخلت المنزل ورأيت جهاز الهاتف، طرأت لي فكرة الاتصال بالملحقية لإبلاغهم بعنوان سكني بناء على طلبهم، ولكن مايك كان يمنعني وغيري من الساكنين في الغرف الأخرى من استخدام الهاتف،

وقال: «إنه لاستقبال المكالمات فقط. كما أن علينا استخدام الحمام أسفل المنزل». تظاهرت أمامه بعدم الاكتراث لهذه التعليمات. ولكني كنت أجمع في داخلي كل الكلمات القبيحة التي أعرفها بالعربية أترجمها إلى الإنجليزية وأقذفها في وجهه بصمت. لم أرض أن تمر تلك التعليمات دون مقابل، فإذا كنت أود تنظيف غرفتي بالمكنسة الكهربائية أنتهز غيابه عن المنزل وأشغلها من فيش الكهرباء الذي يقع خارج غرفتي حتى تقع التكلفة عليه، كما كنت أستخدم الحمام الجديد في الطابق نفسه مراراً، لو رأيتم حال الحمام في أسفل المنزل لن تلوموني على تصرفاتي هذه.

في صبيحة اليوم التالي وكان يوم أربعاء صحوت باكراً، واتجهت إلى المطبخ لإعداد إفطاري، أخرجت بيضتين مسلوقتين من الثلاجة ووضعتهما في (المايكرويف)، ولكني سمعت فجأة صوت انفجار قوي، فقد انفجرت البيضتان داخل (المايكرويف). لثوان لم أدر ماذا أفعل، كنت أخشى أن يكون مايك، في غرفته، ولكني حمدت الله عندما علمت أنه غادر المنزل باكراً هذا الصباح، نظفت مسرعاً (المايكرويف) من قشر البيض المتناثر داخله، وصنعت لي ساندويتش جبن، وبعد الانتهاء من فطوري، رحت مشياً على الأقدام إلى الكلية.

كانت أولى المحاضرات مادة الترجمة العملية Practical Translation ويدرسها الدكتور محمود، وكان نظام الجلوس فيها كبقية المحاضرات وجهاً لوجه، أي أن كل طالب يرى جميع طلاب وطالبات الفصل. وهذا طبعاً يفيد أثناء إثارة النقاش، وكأننا في مؤتمر صحفي. أما إذا كان الواحد منا يشعر بالنعاس، فلا مجال

له للجلوس في المحاضرة، تعودنا أن ننادي الدكتور محمود خلال المحاضرة بـ أستاذ محمود أو أستاذي، لحظت على المحاضرين هنا التواضع والتعامل مع الطالب أو الطالبة بكل أدب، وإعطاء الطلبة الفرصة للنقاش والمداخلة والاعتراض وإبداء وجهة النظر، كما لحظت أن الجو التعليمي العام في المحاضرات يهتم ويركز على التحصيل العلمي للطلبة ما يجعلهم يبتعدون عن السؤال عن الدرجات والتركيز عليها، كما كنا نفعل في كلية الآداب بالرياض.

سألت الدكتور ذات يوم عن إمكانية إحضار قاموس أثناء الامتحانات الشهرية أو حتى الامتحان النهائي، التفت نحو النافذة لثوان، ثم أدار وجهه نحوي، وقال:

إذا لم تكتسب المعرفة وممارسة الترجمة طوال هذه الأشهر، فالقاموس لن يجعلك تنجح في الامتحان.

حان موعد درس اللغويات العامة General Linguistics ويدرسها الدكتور (جون ميلت). وكانت هذه المحاضرة من أكثر المحاضرات مللاً وكآبة، وليس السبب المحاضر، فهو طيب الخلق. ولكن شعوري ذلك يعود إلى كرهي لعلم اللغويات، كما أن الدكتور في أثناء المحاضرة يسهب في حديثه، ثم تتشتت أفكاره، ثم يسألنا عن أي شيء قاده إلى هذا الحديث. في هذه المحاضرة اعتدت أن أجلس أنا وزميلي عبد اللطيف، وهو من المغرب، في آخر القاعة، ويكون المحاضر في وادٍ ونحن في وادٍ آخر، ولحسن الحظ فإن قاعة المحاضرة كانت تعج بالطلبة والطالبات، حيث ينضم إلينا طلبة اللغويات لمرحلة البكالوريوس، وبسبب هذا العدد من الطلبة صار المحاضر لاهياً عنا.

في إحدى المرات، كنت أنا وعبد اللطيف في درس الدكتور جون نجلس في آخر الصف، كعادتنا، ونتناقش حول قصيدة كتبها، بعدما انتهينا، قال عبد اللطيف بصوت عال : (أمممممم) سمعه الدكتور، فقال له: «هل لديك يا عبد اللطيف ما تود أن تضيفه»، ما إن رأيت وجه عبد اللطيف، وهو في ورطة كبيرة، حتى خرجت مني ضحكة سمعها كل من في الفصل، فواريت وجهي على الفور خلف يدي وأنا أضحك.

* *   *

مضت أسابيع ولم يجر أي امتحان لنا، وهذا بخلاف ما تعودت عليه في جامعة الملك سعود، فما إن تمر ستة أسابيع حتى يحل الامتحان الشهري الأول، وبمرور مثلها ثانية يحل الامتحان الشهري الثاني. جعلني هذا النظام أشعر بعدم الرغبة في المذاكرة أياماً عديدة، كما أنني متخرج من مدرسة أكاديمية تقول: إنه إذا أردت الحصول على درجات عالية فما عليك إلا القيام بحفظ ما في المنهج أما في SOAS ، فالأمر مختلف تماماً، فعليك الدخول في النقاش مراراً و إبداء الأسئلة وطرح وجهة نظرك، خاصة أن الترجمة تتقبل العديد من الآراء.

توالت الأيام والأسابيع وصار لي برنامجي المعتاد...أصحو في تمام الساعة الثامنة إلا ربعاً أفطر وأستعد للكلية وأتجه لها مشياً، أحضر المحاضرات في كل أيام الدراسة، وكم أعود إلى غرفتي في أيام الخميس وأنا منهك، فهو كما قلت لكم تكثر فيه مواد دراستي، في

أوقات الفراغ أحاول المشي عبر طرقات لندن، محاولاً بذلك اكتشافها واكتشاف المجهول منها.

كان انقضاء تلك الفترة جعلني أبصر، وعن كثب، أن وصف لندن بأنها عاصمة الضباب كان وصفاً غير مبالغ فيه البتة، فكل يوم أرى عناقاً حارا بين غيوم كثيفة ولندن، لا يتبدل الطقس إلا في ألوان الغيوم، فمرة تكون الغيوم بيضاء، وفي أيام أخرى تتلون تلك بلون رمادي داكن، يجعل الليل يزحف باكراً على طرقاتها، وتضيء أنوارها في غير وقتها المعتاد.

في إحدى الليالي، كنت في غرفتي أذاكر ليس برفقتي سوى السكون، وكوب من القهوة السوداء، تصل رائحتها إلى كل مكان في أرجاء الليل المحيط بي، أدير مفتاح الراديو أبحث عن صوت قادم من الوطن ولا أجد، أفتش بين أشيائي وأقلب حقائبي لعلي أجد ما يذكرني بأهلي ومدينتي، شعرت في تلك الليلة أن أشياء انتزعت مني، وكآبة بدأت تطفو على سطح روحي، بعد أن أغرق مطر لندن كل مشاعر الشوق واللهفة، فرحت أيما فرح عندما وجدت صورة تجمع اثنين من إخوتي، قبلتها أكثر من مرة، ورحت أحدثهما وكأني بينهم، شعرت أني انتقلت إلى الرياض على بساط علاء الدين، وجلست معهم أحدثهم وأمازحهم وأسمع ضحكاتهم تدور في أرجاء المنزل بملامحهم، التي تركت الشمس شيئاً من ألوانها عليهم.

فجأة سمعت طرقاً على باب غرفتي، وعندما فتحت الباب وجدته أمامي، ومن غيره مايك أو شنجاري، وهذا اسمه الحقيقي، كان يقف بعينيه الحمراوين، ويتحدث بشيء من الانزعاج بسبب كثرة

الاتصالات التي وردت أمس، عندها علمت أن أبي حاول مراراً الاتصال بي ولم يستطع فأصابه قلق شديد، وبسبب هذا وبسبب كثرة المنغصات الأخرى في هذا المنزل قررت أن أبحث عن سكن آخر.

في صباح الغد وكان يوم خميس، نهضت متأخراً. كان الحنين والتفكير في سكن بديل جعلا نومي يتأخر البارحة، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحا عندما استيقظت، ارتديت ملابسي على عجل، ورحت للكلية وأنا أركض، كان الجو أكثر برودة من الأيام التي خلت، لقد حوَّل أنفي إلى كومة من اللون الأحمر، وجدت المطر قد غسل كل الأشياء: المباني...السيارات...وما يزال يهطل بغزارة، كان يربك خطاي ويبعثرها، فأكاد أقع مثل الماشين على الرصيف، تحول الشارع إلى لوحة من المرايا تعكس وجوهنا، وكأنها أشباح تطاردنا.

دخلت الكلية، نفضت المظلة المبللة بالمطر، وأنا أمسح بقدمي قطعة سجاد كبيرة، عندما دخلت الفصل ألقيت التحية على الأستاذ وبقية الزملاء، فسألني الأستاذ:

- إيه ما لك اليوم ؟

- حبسني حابس يا دكتور، نهضت متأخراً، وسقوط المطر شديد صباح اليوم، ولم أستعد له.

سألني عن طارق وهو زميل من سوريا، فقلت له: إنه ترك الكلية، وربما ترك لندن، وسافر عائداً إلى بلده بسبب الصعوبات التي واجهها.

جعلني حديث الدكتور معي عن طارق أتذكر أمينة، هي من طالبات هذا البرنامج، فمع مرور الأيام في الكلية بدأ طريقها يأخذ مسار الإخفاق مثل طارق. كانت ضعيفة في اللغة الإنجليزية واللغة العربية معاً، وفي أحد الأيام ـ وأتذكر هذا اليوم جيداً ـ دخل علينا الدكتور إدواردز وسلمنا بحوثنا بعد نقاش بينه وبين كل صاحب بحث، التفتت أمينة إليَّ في القاعة سألتني وهي مندهشة:

– أحمد (داير أقليك شنو) متى أعطانا الدكتور هذا الواجب؟

أصبح هذا سؤالها المعتاد لي دائماً، وفي كل مرة تطرح هذا السؤال، يواري عبد اللطيف ضحكته خلف يديه. أما أنا فكنت أمسكها بقوة حتى لا تظهر، لا أدري لماذا اختارت أمينة هذه الجامعة، المعروف عنها شدتها، وعدم التضحية بسمعتها بمنح الشهادات بسهولة؟ ولا أدري لماذا تختارني لطرح سؤالها المعتاد؟ كان من المفروض عليها أن تعرف مستواها أولاً، ثم تختار البرنامج الذي يناسبها، وما أدهشني أنها كانت حاضرة معنا وقت تحديد موضوعات البحوث، ولكن يبدو أنها كانت في القاعة جسداً، وفي قارة أفريقيا روحاً.

في أيام الجمع لم تكن عندي محاضرات، كما قلت لكم، ولكن بسبب إجراء البحوث والاطلاع، كنت أحياناً أقضي بعض أيامها في المكتبة، وكنا ـ الطلبة المسلمين ـ نصلي صلاة الجمعة في قاعة كبيرة من قاعات الكلية في الطابق السفلي، وذلك مع التنسيق مسبقاً مع مسؤوليها، نفرش السجاد، ثم نضع حاجزاً من كراسي القاعة ليستر المصليات، ثم يقوم أحدنا ويخطب، أما باقي صلوات الأيام الأخرى فكنا نؤديها في مجموعات صغيرة جداً، في غرفة مكتوب على بابها Prayer Room في الطابق الثالث.

في أحد أيام الجمع هذه، وبعدما فرغت من صلاة الجمعة، ولأنني خلصت باكراً من قراءاتي في المكتبة، تقت لتناول كوب من الكاباتشينو، فما وجدت أفضل ولا أحسن من ذلك المقهى، الذي كنت أنا و فلافيا نجلس فيه بالقرب من محطة مترو أنفاق (روسل سكوير). تلك الفتاة الإيطالية الوضيئة التي قابلتها في أول أيام الدراسة، كنت في المكتبة وقت الظهر، وبينما كنت أقلب بعض الكتب إذا بمن يضرب على كتفي، سألتني بلغة عربية فصيحة:

- هل أنت عربي؟ نعم، أجبتها، ثم صافحتني وهي تعرفني بنفسها:

- أنا فلافيا من إيطاليا وتحديداً من باليرمو، أنا هنا لأجمع بعض المعلومات عن بحثي، الذي يناقش الوجود الإيطالي في دول شمال إفريقيا.

ساعدتها في البحث عن الكتب التي أرادتها، ثم توالت لقاءاتنا هنا. في إحدى المرات، في يوم شديد الغيوم والبرد والمطر كنا في المقهى، فطلبت منها أن أقرأ عليها بعضاً من الشعر العربي، فراقت لها الفكرة، فأخذت أقرأ لها مطلع من قصيدة (أنشودة المطر) للسياب بهدوء، وأنا أنظر في عينيها الصحراويتين :

عينـاك غابتـا نخيـل ساعـة السحـر
أو شرفتـان راح ينـأى عنهمـا القمـر
عينـاك حـين تبسمـان تـورق الكـروم
وترقصـ الأضـواء .... كالأقمـار في نهر

ولأن لغتها العربية جيدة فقد أعجبها الإيقاع الموسيقي، وطفت أحدثها عن معنى هذه الأبيات، قطع هذا المشهد من ذاكرتي النادل

عندما أتى ووضع كوب الكابتشينو على الطاولة، وكم تمنيت أنه لم يأت وتركني معها. آخذ رشفة، أطلُّ بنظرة عبر الزجاج الذي تحول إلى زجاج ضبابي بسبب تباين درجة الحرارة داخل وخارج المقهى، أرى الوجوه من خلال هذا السديم تضيع في الزحام، وتظهر وجوه أخرى، أحاول عبثاً أن أرسم صورتها وسط أشباه المارة. فما استطعت، كان حضورها بالنسبة لي كالبريق الذي أضاء الأفق للحظة ثم اختفى، أخرج أحد دفاتري وأكتب :

حان وقت المساء
وتساقط المطر.
الساعة السادسة الآن
وقع أحلام تنهمر.
أبخرة القهوة تغلف أشباه الوجوه
النظرات تتعانق
يجيء الظلام
ونموت
وفي الشفاه
بقايا لقاء ما تلذذ بالرضاع .
ويعود المساء
مثخناً بجروح الاغتراب
.....بلا لقاء
...بلا مطر .

* * *

مرّ شهران على وجودي هنا. أصبحت أتنقل بين الأماكن وكأني أسبح في بحر من الغيوم الداكنة. شعرت أن لندن فتحت ذراعيها لتحتضن بكل حنان ذلك الغريب القادم من مكان بعيد. وهو يجوب شوارعها مثل طفل يرى كل شيء جديداً في عالمه الصغير ويلهو بفرح، ألفت هذه العاصمة. وصرت أمشي في شوارعها دون حاجة لأن أسأل أحداً من المارة أو ممن يبيع الصحف عند مداخل محطات المترو، حتى شبكة قطار مترو الأنفاق صرت أتنقل فيها دون أن أحمل خارطة لها.

في أحد الأيام وبعدما انتهت جميع محاضراتي، طرأت لي فكرة التجول في الطرقات الكبيرة المحيطة بالكلية. وصلت إلى شارع توتنهام كورت رود، ومن ثم دخلت في طريق طويل، مزدحم بالمارة على رصيفيه العريضين، ومليء بالمحلات والبشر والحافلات الحمراء ذات الطابق الواحد والطابقين. يخيل لي أنها ستصطدم بعضها مع بعض. ولكنها تمر بكل تناغم. الغريب أنني وعلى الرغم من زحمة هذا الشارع فلم أسمع أبواق السيارات، وجدتني أمشي في شارع أكسفورد.

أخيراً...هاأنذا أمشي على أرصفتك العريضة يا أكسفورد، وكم سمعت عنك كثيرا وأنا في الرياض. لكني لم أتوقع أن تكون بهذا الزحام، أسمع العديد من اللغات وأرى البنايات المرتفعة تعانق سماءك على طول امتدادك. والمحلات على جانبي رصيفيك كثيرة وممتدة بلا نهاية.

هل لك نهاية مثلنا يا أكسفورد؟

ما زلت أسير في هذا الشارع، شخص ما يقف على الرصيف،

يحمل لوحة تدل على موقع محل يجري تخفيضاته السنوية، مجموعة من الناس يقفون في صف انتظاراً لحافلتهم، متسوقون يقفون أمام واجهات زجاجية عريضة، يتأملون معروضات مكتوب عليها New Arrivals ، غصت بين جموع من الأشباه والخطى المسرعة وقطرات من المطر، عيناي صارتا تدمعان بسبب البرد الذي يدفعه الهواء ليصطدم بوجهي وأنفي المحمر، زادت مشاعر اغترابي وحنيني لأهلي وأمسي، أعجبتني فكرة الحديث مع أبي وأمي، فتحت باب أحد صناديق الهاتف العمومي الحمراء المنتشرة في كل رصيف وركن، ما إن سمعت صوت أبي واخوتي إلا وتبدلت المظاهر من حولي، لتحمل قسمات من ملامح الرياض ومبانيها، تعززتْ هذه المشاعر عندما بزغت الشمس من بين غيوم رمادية، كانت تعانق سماء لندن في معظم أوقاتها، ولكن سرعان ما تلاشت هذه الفرحة عندما سمعت صوت بكاء أمي، يا لحنانك يا أمي وسعة رحمة قلبك، للحظات كنت سأشاركها هذا البكاء، ولكني تغلبت على مشاعري، فحاولت أن أُظهر صوتي أمامها متماسكاً، ولكن برغم تأكيداتي لها أن أموري تسير على ما يرام، إلا إن صوتها كان يحمل كل رعشات الخوف والقلق.

ظلت دعواتها تلازمني وأنا أمشي في هذا الشارع المزدحم وكان هذا يبعث لي راحة لذاتي، التي كانت مبعثرة قبل دقائق، لاحت من بعيد علامة محطة مترو أنفاق، وعندما اقتربت قرأتها، اسمها المكتوب بشكل عريض (ماربل آرتش)، عند مدخل المحطة، أوقفتني فتاة، وقالت: إنها ستسألني بعض الأسئلة إذا لم أمانع، عرّفتني بنفسها بأنها عضو في فريق استفتاء، دفعني الفضول للموافقة على أسئلتها:

- هل تؤيد التغير؟

- إذا كان للأفضل فنعم.

- ما الذي تريده أن يتغير في هذه الحياة؟

سؤال طرق باب خيالي فجاءة، ولم أعرف أن أجيب على الفور، فكرت أن أجعلها تشرح لي المقصود من السؤال، رحت أتأمل الأجواء من حولي، رأيت رجلاً يركض ليلحق بالحافلة. وفتاة تجلس على كرسي إسمنتي تأكل، وهي تقرأ جريدتها، وامرأة طاعنة في السن تجر حقيبتها وحدها، وحافلات حمراء كثيرة تأتي وتذهب، لم تنجح جميع هذه المشاهد في مساعدتي لأجيب على هذا السؤال، حقيقة ما الذي أريده أن يتغير في هذه الحياة؟ في الرياض لم أتعود على أسئلة مثل هذه، فكل الأسئلة التي ُربيت عليها لا تحث ذهني على التفكير، بل كانت تعطيني الجواب في نفس السؤال: تحب أباك أم أمك...هل تفضل جريدة الرياض أم جريدة الجزيرة...هل أو...نزلت محطة مترو الأنفاق درجة درجة، ولا أتذكر إجابتي على ذلك السؤال، كل الذي أتذكره أنها ابتسمت، وهي تخط في أوراقها، ثم اختفت خلف حافلات حمراء تكاد تلتصق بعضها ببعض.

في الأيام التي تلت أصبح الجو أكثر برودة، ولم أعد أستطيع الذهاب للكلية مشياً دون أن أرتدي ملابس ثقيلة، فاشتريت معطفاً ثقيلاً ومظلة واقية للمطر وقفازات، صرت مثل اللندنيين أتابع نشرات الأخبار الجوية، وأتأفف من سقوط المطر، كم كان شعوري هذا تجاه المطر يشعرني بالحزن والفراق، فراق عزيز رافقني في طفولتي وأمسي، لم يكن الأمر بيدي فالغربة المميتة جعلت مشاعري تتبدل

على هذا النحو تجاهه، المؤلم في الأمر أنني صرت أحاول أن لا أبتل بالمطر وأشعر بضيق إذا فتحت نافذة غرفتي ووجدته يهطل بصمت.

كنت بين حين وآخر أبحث عن سكن آخر في الإعلانات الكثيرة المنتشرة في ممرات الكلية أو في مبنى اتحاد الطلبة، وذات يوم وقعت في يدي مجلة (Time Out) وهي مجلة تخبرك بكل ما يجري في لندن من سينما وحفلات وسكن وأماكن سياحية، وجدت بها صفحات خاصة بالسكن، سجلت أحد عناوين نزل الطلبة، كان يقع بالقرب من محطة (غريت بورتلاند ستريت)، عندما خرجت من المحطة، لم أخطئ مكانه فكان اسم المبنى مكتوب على المدخل الرئيس واضحاً: International Students House شرحت المسؤولة عن رغبتي في السكن فيه بعد أن جلت داخله. حاولت أن أعرف أكثر عن هذا السكن، فتجولت بداخله، قرأت لوحة الإعلانات، ووجدت أنه حافل بالأنشطة، ففيه مطعم يقدم الوجبات الثلاث، ويعرض فيلماً كل يوم أحد، ويوم الثلاثاء يعد يوماً رياضياً، فيمكن للطلبة لعب تنس الطاولة، وإجراء تمارين الإيروبكس في الدور السفلي، كما أنه يتيح لغير الساكنين فيه العضوية مقابل رسوم رمزية للاستفادة من تلك الأنشطة.

من الصورة الكبيرة المعلقة على يمين المدخل عرفت أنه تحت الرعاية الحكومية، فقد افتتحته الملكة الأم إليزابيث رسمياً في 5/4/1965م. أما أنا فرأيت موقعه جيد جداً لي، فهو يبعد نفس مسافة السكن الأول عن الكلية وقريب جداً من متنزه (ريجنتس بارك) الكبير، ولساكن دائم Permanent Resident كان أجر الغرفة 80

جنيهاً في الأسبوع لغرفة منفردة ، أي حوالي (483) ريالاً، وعليَّ دفع 300 جنيه إسترليني ضماناً يعود بعد انتهاء فترة السكن، وهذا يعني أن تكلفة السكن لغرفة صغيرة لا تتعدى مساحتها 3× 4 في الشهر تصل إلى 1932 ريالاً سعودياً و قرابة 23000 ألف ريال في السنة!!!! يا لهذا الغلاء !! أتذكر أنه بإمكاني أن أستأجر شقة كاملة في الرياض. في أحد الأحياء الراقية بأقل من هذا. دفعت مبلغاً مقدماً. وأخبرتني أن غرفتي هي رقم (111) بالطابق الأول. ويمكنني استلامها بعد شهر.

بعد مضي هذه الفترة، كان مايك مسافرا خارج لندن في رحلة عمل، وكانت هذه فرصة لي أن أنقل أشيائي بسرعة، وبعدما أعددت حقائبي وأغراضي، رأيت التاكسي يقترب من البيت قبل الموعد بدقيقتين، وبعدما رتبت أغراضي في الغرفة الجديدة بيومين وشعرت 5 بالارتياح، إذا بمسؤول السكن يرسل لي ولجاري خطاباً بأن علينا إخلاءها لإعادة فرشها وطلائها، شعرت بالعجز...شعرت بالامتعاض الشديد...لأنه لا أحد هنا يقدم لك المساعدة لوجه الله، فإخلاء الغرفة يعني أنه عليَّ البحث مجدداً عن بعض الكراتين الفارغة وملأها بأغراضي، وإعادة وضع جميع أغراضي صغيرها وكبيرها في الحقائب، ثم حملها وحدي وإفراغها مرة أخرى في مقر السكن المؤقت، وبعد الانتهاء من أعمال الدهان والفرش و تركيب الستائر، عليَّ القيام بهذا المشوار وحدي مرة أخرى.

مع مرور الأيام شعرت أن اختياري لهذا السكن كان موفقاً، وعلى الرغم من كرهي البقاء في السكن السابق إلا أن بعض المواقف الطريفة حدثت لي فيه، وأجدها فرصة للحديث معكم عن بعضها.

كان مايك دائماً يمنع سكان المنزل من استعمال الحمام في الطابق الأرضي، لأنه جديد ونظيف، ولا يحق لأحد أن يستعمله إلا هو، كنا نستعمل الحمام في الطابق السفلي. ولكني في أحد الأيام ومن غير مبالاة مني بأوامره، دخلت هذا الحمام للضرورة، سمعته فجاءة يدخل المنزل، شعرت بضربات قلبي تضرب على الباب، ماذا أفعل؟ هل أخرج من الحمام وأنا في منتصف الطريق؟ هل أعتذر له؟ سمعت خطواته وهو يصعد الدرج إلى شقته في الطابق العلوي، طار الخوف، وأكملت مشواري بكل ارتياح.

ومرة من المرات، فتحت نافذة غرفتي، وتركتها حتى يتجدد الهواء داخلها، وخرجتُ لأحضر بعض الأغراض. وفجأة انغلق الباب بسبب الهواء الداخل إلى الغرفة، وجميع مفاتيحي بها، ولسوء الحظ لم يكن أحد موجوداً في البيت في ذلك اليوم. لا جاري ولا حتى صاحب المنزل، وبينما أنا في حيرة، رأيت باب الغرفة المجاورة لي مفتوحاً، ولها نافذة على الشارع مثل غرفتي، فتحت نافذتها وخرجت منها، وأخذت أمشي على القرميد الأحمر متجهاً صوب غرفتي، لو رآني أحد لحسب أنني لص محترف يسرق المنزل في وضح النهار، ولو رآني صاحب المنزل لأنزل غضبه عليَّ بسبب خوفه أن يتكسر حجر القرميد الأحمر وأنا أمشي عليه، تابعت المشي حتى وصلت إلى نافذة غرفتي، وقفزت فيها وهكذا أنهيت مشكلتي.

ومازلت أتذكر أنني مرة دخلت في مشاجرة معه، وقد أخذ يسب ويشتم رافعاً صوته، كدت أقع على قفاي من الضحك، فكل الذي خرج منه بعد هذا الغضب والثوران أن قال: «أنت شكلك من أفريقيا، ولهذا شعرك مجعد».

أعود بكم إلى أجواء سكني الجديد، ففي المساء تكثر فيه حركة الطلبة والأعضاء، فيشعرك هذا بالانتماء على عكس السكن الأول، الذي ما إن أخرج من الكلية صوبه، حتى أحس و كأنني أمشي في مدينة مهجورة لا أجد أحداً أكلمه، وإن سنحت الفرصة فسيكون الحديث فقط لشراء أغراض أو وجبة عشاء.

مع مضي أيامي في هذا السكن، شعرت أنني بدأت أتأقلم مع الحياة في لندن، فأصبحت أقضي وقتاً في لعب تنس الطاولة، وأحياناً أشترك في تمارين الإيروبكس الرياضية، كان السكن يقيم مرة في الأسبوع ما يسميه بالبيت المفتوح Open House، وفيه يحضر من يرغب من الطلبة والأعضاء ومسؤولي السكن لتناول الكيك والبسكويت مع شاي، وفي حفلة الشاي هذه تتاح لك الفرصة للنقاش وتبادل وجهات النظر، ومقابلة زملاء وأعضاء جدد، وأتذكر جيداً أن أحد ضيوف هذا اليوم كان (إدوارد هيث)، وزير الخارجية البريطاني الأسبق، الذي تناول الشاي معنا بعدما ألقى محاضرة عن مستقبل اقتصاديات الدول النامية في مسرح السكن.

تعرفت في هذا السكن على العديد من الطلبة والأعضاء، كنت أقضي بعض الأوقات معهم، أحدهم (كنت) وهو من سنغافورة ويدرس التسويق Marketing في جامعة (ويست منستر)، تعرفت عليه أثناء اشتراكي مع مجموعة من النزلاء والأعضاء في لعب التنس الأرضي في منتزه (ريجنتس بارك)، وتطورت علاقاتنا إلى أن أصبحنا نذهب معاً إلى هذا المنتزه لنلعب التنس الأرضي، وكان استئجار الملعب يكلف عادة 4 جنيهات إسترلينية للساعة الواحدة، ودرجنا في نهاية لعبنا أن نحجز الملعب ليوم آخر، بسبب حب البريطانيين لهذه اللعبة، فأول

يوم جئنا إلى هذه الملاعب لم نجد أياً منها شاغراً على كثرتها ،ورغم طول انتظارنا.

* * *

اليوم هو يوم خميس...

يوم طويل آخر من الدراسة، وعيناي تجوسان خلال الفصل بحثاً عن غفوة، يدخل الدكتور (ريد) الذي يدرسنا مادة "نظرية الترجمة"، وبدأ يشرح لنا بعض الصعوبات التي تطرأ عند ترجمة بعض النصوص من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف، في نهاية المحاضرة، طلب منا اختيار نص ومناقشة صعوبة ترجمته، كنت أبحث عن نص لكتابة هذا البحث، وقع اختياري على قصيدة «أنشودة المطر» لبدر شاكر السياب لإعجابي بها ،ولأن فيها الكثير من المفارقات بين الثقافتين واللغتين العربية والإنجليزية، يقول السياب في مطلع القصيدة:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

هنا المتحدث في القصيدة يحاول رسم صورة غير مباشرة لعيون محبوبته، وما أثار مشاعره هو سوادهما، وكأنهما مدهامتان؛ ولإعجابه الشديد بهما، شبههما بغابتين من النخيل الكثيف في وقت ميلاد الصباح، ويمكن ترجمة هذا المقطع على هذا النحو:

Your eyes are two forests of palm at dawn

Or lattices behind which the moon sets

من الناحية الثقافية، هل سيعي القارئ للنص الإنجليزي المدلول الثقافي خلف تشبيه الشاعر عيون محبوبته بغابات النخيل؟ وهل سيعي أيضاً أن العيون السود لها مكانة في خيال الشعراء العرب؟ أما من الناحية البلاغية، فنلاحظ أن الإيقاع الشعري الجميل الذي كونته الكلمتان: (السحر، القمر) قد اختفى تماماً في النص(الهدف) المترجَم، ومن الناحية النحوية، نجد أن العدد المثنى المتمثل في «غابتا» وهي كلمة واحدة قد تمت ترجمته إلى كلمتين: Tow Palms، ففي النحو الإنجليزي لا توجد صيغة المثنى، ولهذا يجب إدخال المدلول الرقمي Tow للتفريق بين صيغة المثنى والجمع.

5 توسعت في الحديث عن هذا القصيدة في بحثي، وأشرت إلى عملية الإسقاط أو كما يقال باللغة الإنجليزية Omission والهدف البلاغي من وراء هذا الإسقاط Rhetoric Purpose لكلمة «اللؤلؤ» في المقطع الآتي:

أصيح بالخليج : «يا خليج ..

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى»

فيرجع الصدى

كأنه النشيج:

«يا خليج ..

يا واهب المحار، والردى».

أُعجِبَ المحاضر بموضوع البحث في أثناء نقاشه لنا في المحاضرة،

وعندما تسلمت ورقتي فوجئت أنني حصلت على 60 درجة من 100. حزنت لهذا لعدة أيام. شعرت بالإحباط والخوف، بل بالفشل الذي بدأ يزحف تجاه طموحي، هذا الشعور المحبط صار يعود لي ويتجدد كلما فتحت ورقة بحثي. وفي يوم طمست الدرجة بلون أسود وبقوة حتى تمزق مكانها.

بعد انتهاء محاضرة الدكتور توماس، كنت أمشي معه ونحن نتحاور في العديد من المسائل حول اللغة، وتطور نقاشنا للحديث عن جوانب كثيرة عن الحياة الأكاديمية هنا ومدى اختلافها عن جامعة الملك سعود، فوجدتها فرصة لأعرض عليه جزءاً من حزني بسبب درجتي الضعيفة تلك، قد لا تصدقون أنني كدت أطير من الفرحة عندما قال لي: إن هذه الدرجة في SOAS . تعني جيد جداً منخفض أي (B-)، صرت أمشي في ردهات الكلية وقد شعرت لحظتها بأن كل شيء يقبل نحوي بفرح.

لم تكن طريقة توزيع الدرجات هو الفارق الوحيد بين هذه الكلية وبين ما تعودت عليه في الرياض. عندما كنت طالباً في كلية الآداب بجامعة الملك سعود. فعندما أخذت ورقة بحثي في مادة النحو المقارن، فوجئت أن زميلي عبد اللطيف أخذ درجة امتياز رغم قصر بحثه وتدني مستوى لغته، علمت أن في عرف الكلية يقضي عليك أن تأتي بموضوعات جديدة لتطرحها وتناقشها في بحوثك، ولا تعيد ما قيل في المحاضرة وهذا ما حدث لي، فقد تحدثت عن أقسام الكلمة في اللغة العربية، وهذا كان أحد الموضوعات التي تحدث عنها المحاضر، أما عبد اللطيف فقد تحدث عن اللهجات الدارجة في المغرب وأثر اللغة

الفرنسية عليها، وهذا موضوع جديد للمحاضر، ولهذا نال الدرجة الأفضل.

كما أن عليك هنا الدخول في النقاش مراراً، وابداء الأسئلة وطرح وجهة نظرك، فأذكر هنا أن أحد الطلاب العرب كان يتفوق عليَّ في درجات البحوث، علماً أن اختياري للنصوص ومستوى كتابتي، في أبحاثي أفضل منه بكثير، والسبب أنه كان فعلاً يناقش في المحاضرة أكثر مني، فالدكتور هنا في SOAS يقيِّم الطالب من خلال وجوده في المحاضرة، وليس من ورقة الإجابة أو البحث الذي أمامه.

لم أستعجل الخروج من الكلية اليوم برغم انتهائي من جميع محاضراتي، فهناك في إحدى القاعات الكبيرة سيلقي يوسف إسلام محاضرة، ويوسف إسلام هو المغني البريطاني المشهور المعروف بكات ستيفن، وقد أسلم وغيَّر اسمه إلى يوسف إسلام، جلست في القاعة الكبيرة وكان الحضور جيداً، سأله أحد الطلبة عن موقفه من فتوى الإعدام التي أطلقها الإيرانيون بحق سلمان رشدي، فأجاب أنه يؤيدها عقاباً رادعاً، فما كان من السائل إلا أن خرج من القاعة غاضباً، ومعرباً عن استيائه من موقف يوسف إسلام من هذه الفتوى، أما أنا، تمنيت لو أننا ـ المسلمين ـ تجاهلنا سلمان رشدي وأمثاله في تلك الأيام، فهو ليس أول من تجنى على الإسلام والمسلمين، ولن يكون الأخير، وأعتقد أن هذه الفتوى أعطته شهرة ما كان ليحلم بها أبداً.

حياتي في لندن والكلية

اليوم هو السبت، يوم تهدأ فيه الحياة نسبيا، وفراغ كبير يجعلني أضيع في أروقة الصمت والوحدة. مما قرأته في الكتيبات السياحة التي توزع مجانا في كل مكان: أن المحلات في سوق (بورتو بيلو) تفتح أبوابها في هذا اليوم، ما مرت لحظات إلا وقد كنت أنتظر القطار على رصيف محطة مترو أنفاق (غريت بورتلاند ستيشن)، وعندما وصل القطار إلى محطة (نوتتينغ هيل غيت) خرجت منها، خرجت إلى عالم آخر من الحياة في لندن، وجدت المباني ملتصقة بعضها ببعض، ولكل مبنى لونه الخاص به، فهذا مبنى مطلي باللون الأحمر، وآخر ملاصق له باللون الأخضر، ولون أصفر يتداخل مع لون أزرق ما أعطاني انطباع أن هذا الشارع مثل مدينته لندن، يحاول دمج ثقافات العالم وشعوبه، وأن يجعل الغرباء مثلي يشعرون أن ثمة موطئاً للانتماء هنا، وإن بعدت المسافات،

مازلت أسير في هذا الشارع الطويل الغاص بالناس، وأغلبهم، كما يبدو، من السياح.

وقفت عند أحد المحلات التي تبيع الخردوات، ورأيت في محل آخر نحاسيات قديمة، دروعاً وسيوفاً، حتى خيل لي أن صاحب هذا المحل جمع هذه القطع بعد معركة في عصر الرومان.

بائع خضراوات وفاكهة يصيح بأعلى صوته، معلناً عن الأسعار المخفضة لمعروضاته، مشهد مألوف في المنطقة الوسطى من هذا الشارع.

جذبني صوت لمجموعة من الشبان يعزفون موسيقاهم، ملابسهم توحي بالقدم، مثل ما يوحي به تاريخ هذا الشارع، وبرغم أن موسيقاهم لم تكن تطرب الملتفين حولهم، إلا أنه بين لحظة وأخرى يتقدم أحد الجمهور ويضع بنسات في قبعة ملقاة بقربهم، آخرون يقومون بتصويرهم، في مكان آخر من هذا الشارع، رأيت بعض السياح يلتقطون الصور مع أفراد الشرطة الذين لهم لبسهم الخاص بالقبعة السوداء والجاكيتات ذات اللون الأخضر الفسفوري، تساءلت لو أن أحد السياح في الرياض طلب من أحد أفراد الشرطة أن يلتقط صورة معه، فما ردة فعل ذلك الشرطي إذا قبل الأمر، وما هي ردة فعلنا نحن على مشهد مثل هذا لو رأيناه؟

يحل يوم الأحد، يوم آخر من الاغتراب المميت، في هذا اليوم تتحول المدينة الصاخبة إلى عالم من الصمت والهدوء، وتظل ناعسة طوال اليوم، فوقع الخطى على الرصيف يختفي، ومعه تختفي أعداد كثيرة من السيارات، لذا أنصح من يريد أن يتعلم قيادة السيارات في شوارع لندن أن يخرج صباح كل يوم أحد.

دخلت حديقة الهايد بارك واتجهت فوراً إلى أشهر ركن فيها. إنه ركن الخطباء، وجدته غاصاً بالمتحدثين والمستمعين، أحدهم يتحدث عن المسيحية، وآخر يتحدث عن السياسيين بأسلوب ساخر، اقتربت من أحد المتحدثين فالجمهور من حوله يضحك. مظهره لا يجعلك تشك أبداً أنه من القارة الهندية. وقفت أستمع. كان يمارس سخرية لاذعة على جمهوره الذين أغلبهم من الإنجليز. فقال لأحدهم بسخرية واضحة: «إن لغتك الإنجليزية ضعيفة، وعليك أن تدرس اللغة الإنجليزية في المدرسة الباكستانية لتعليم اللغة الإنجليزية»، تركته وأنا أسمع ضحكات الملتفين حوله. تركت كل المتحدثين، وواصلت المشي عبر ساحات كبيرة من العشب الأخضر المرتوي بمطر لا يعرف التوقف، أرى من بعيد عدة خيول تمر، وأشجار سامقة تعلو سماء هذه الحديقة الشاسعة. انتهى بي المطاف إلى بحيرة كبيرة وعلى أطرافها طيور البط والحمام تتجمع في جماعات على ضفافها لتلتقط ما يرمي به السياح لهم.

كانت تلك الطيور بأصواتها تقطع غيوم الصمت والوحدة. جلست على أحد الكراسي. وفجأة ظهرت الشمس بحياء من بين هذه الغيوم الرمادية، كان ظهورها في تلك اللحظة. تلك اللحظة بالذات قد أثار في مشاعري شيئا من الألفة. فرأيتها صديقاً عزيزاً من الأمس جاء يزورني، ولهذا استقبلتها بكل فرح وشوق. فظهورها هنا في وسط هذه المشاعر المختلطة، أعادني بذاكرتي إلى الرياض، عندما أجريت عملية في إحدى المستشفيات قبل وصولي إلى لندن. ما زلت أتذكر أنها أدخلت البهجة في نفسي عندما أطلت عليَّ بأشعتها بعد انقطاع عن العالم والناس استمر لعدة أيام، ولهذا أشعر بعد أن تلاقينا هنا،

بأنه من الواجب عليَّ أن أرد عليها التحية هذه المرة، وأن أستقبلها بكل ود وترحاب، وأن أجعل من لقائنا هنا لقاء الأحباب في الغربة.

ما أسعدني بهذا اللقاء، فلست في كل مرة ألقاها، كم وددت لو أستطيع أن أجمع قدراً من أشعتها الدافئة، وأضعها في حقيبتي التي أحملها على ظهري، وأنثرها في طرقاتي...طرقات المجهول من حياتي هنا.

ولكن...ما أمر أن تهوى شيئاً وتراه ماثلاً أمام عينيك وهو صعب المنال.

ما عرفت أنني في شارع عربي آخر إلا عندما أخذت ملامحه العربية تكثر كلما أوغلت فيه، إنه (إيدجور رود) ومن غيره، أخذت أقرأ كل ما تقع عليه عيناي، أسماء المطاعم و المقاهي، وهذه شركة تعلن عن برنامج سياحي، ومكتب محاماة يعرض خدماته، حتى المشاة و الباعة وقليل من السياح وجدت أغلبهم من العرب، في لحظة شعرت أنني أمشي في شارع يضم الدول العربية معاً، شعرت بالألفة، وقفت أقرأ عناوين بعض الصحف أمام إحدى المكتبات، اشتريت جريدة الرياض، زادت بهجتي عندما رأيت أطباق الحمص والفتوش والشاورما، بعدما تناولت غدائي، ركبت قطار المترو من محطة (إيدجور رود) متجهاً إلى غرفتي، وبهجة بقيت ترافقني حتى نهاية تلك الليلة.

لقد درجت على قضاء هذين اليومين في التنزه والتنقل هنا وهناك مدفوعاً بخوفي الشديد من الغربة، كنت بهذا أحاول أن لا أجعل لها مكاناً في نفسي، وعندما أمل من المشي، ولا أجد ما يستدعي

خروجي في هذين اليومين، ألجأ إلى تدابير أخرى، فأحياناً أغسل ملابسي في المكائن المخصصة للغسيل أسفل السكن، وتارة أشارك أعضاء السكن في رحلاتهم السياحية ليوم واحد داخل لندن، أو ألعب كرة القدم في متنزه رجينتس بارك، وبهذا فإن أي محاولة لقضاء وقتي بأي شيء جعلني أتعلم درساً جديداً في حياتي، وهو محاولة الاستفادة من الوقت، ومحاولة إشغال النفس بأي شي حتى لا تعيش النفس ضحية هواجس الذات التي قد لا تحمد عقباها.

* * *

في الكلية، قطعت شوطاً لا بأس به في الدراسة، وكتابة الواجبات والبحوث، فما زالت أيام الدراسة تتوالى، وأنا ملتزم بحضور المحاضرات وكتابة البحوث، كان يوم الخميس أشد أيام الكلية زحاماً وأتعبها، كما قلت لكم، فكنت أرى الكلية بممراتها تعج بالطلبة من دول عديدة، وإذا ظهرت الشمس بأشعتها الدافئة بعد عدة أيام من الغيوم والمطر، يخرج بعض الطلبة والطالبات ويجلسون على درجات السلم الخارجية أو الاستلقاء في الساحة الخضراء بجوار الكلية، والكل منشغل بما يروق له، كانت جميع فصولي في الطابق الخامس ولا يخدم الكلية إلا مصعدين، ترك الزمن بصماته عليهما، ممرات هذا الطابق ككل طابق، ضيقة وإسمنتية والقاعات صغيرة، عندما أدخل قاعة درسي ألقي السلام على من سبقني، وعندما أمل من شرح الأستاذ، التفت لأرى المنظر خلف نافذة القاعة فأجد السماء تسح بغيومها، يقطع سكون القاعة أحيانا صوت أجراس الكنيسة المجاورة.

نزلت برفقة عبد اللطيف وفهمي إلى المقهى في الدور السفلي من الكلية، كم كنت أحب شرب الشاي بالليمون في هذه الأجواء الباردة، وقفت في الطابور...جاء دوري...طلبت مشروبي المفضل...دفعت قيمته وأخذته على عجل، وجلست على أحد الكراسي المرتفعة...تتطاير خيوط البخار من كوبي...اصطدمت عيناي بإعلان معلق على الجدار، عرفت منه أن الكلية ترغب في توظيف بائعين من الطلبة للعمل في هذا المقهى، طرأت لي فكرة التقدم لهذه الوظيفة لكني عدلت عنها، كان عبد اللطيف يحثني عليها فهو يعمل موظفاً في مكتب الاستقبال لأحد الفنادق جنوب لندن، هو اضطر لهذا حتى يتمكن من دفع تكاليف الدراسة، فجأة رأينا أستاذنا توماس يمر، دعوناه ليجلس معنا فجلس.

قلت له:

- تدهشني يا أستاذي بإتقانك للهجة النجدية.

- درست اللغة العربية ولكنني تخصصت في اللهجة النجدية الدارجة.

شرح لنا أنه قضى وقتاً طويلاً يدرسها ويتعلم كثيراً من مفرداتها، حيث أقام مع بعض الأسر في نجد، وكثيراً ما كان يرتدي ملابسنا النجدية المعروفة، سأله عبد اللطيف إن كان درس لهجات عربية أخرى، فقال إنه يتحدث بعض اللغات الأخرى جيداً، ولكن لم يتخصص فيها مثل اللهجة النجدية.

كانت ملامح الشرق تطغى على توماس، فعرفنا أن زوجته إيرانية ومكتبه مزين بسجادة شرقية، وعلى أحد الأرفف توجد صورة لجمال تعبر الصحراء.

بعد انتهاء جلستنا، عدنا إلى صفوفنا، طلب منا الدكتور محمود اختيار أحد النصوص العربية وترجمته إلى اللغة الإنجليزية. وقع اختياري على قصة " تامارا" وهي قصة من كتاب يضم مجموعة قصص قصيرة للأديب السعودي غالب حمزة أبو الفرج هذا الكتاب له مكانة خاصة عندي: لأنه أول كتاب أقتنيه في حياتي، وقد اصطفيته رفيقاً عزيزاً لي في هذه الرحلة.

حصلت على درجة جيد جداً في هذه الترجمة، ما زادني ثقة في حصولي على الشهادة، وهكذا واصلت دراستي في هذه الكلية التابعة لجامعة لندن العريقة بكل ثبات وثقة واقتدار.

مع مضي الأيام وكثرة تنقلي في شوارع لندن، سواء لحضور المحاضرات في الكلية أو للتجول في شوارعها الكبيرة ومعالمها السياحية، خاصة في يومي السبت والأحد، حلت ألفة بيني وبين لندن، صرنا نلتقي كل صباح ومساء ولم أعد أفرح بالمطر. في أول أيام وصولي إليها، كان كل شيء غريباً علي، وهي مختلفة عن المدينة التي كنت قد رسمتها في خيالي في الرياض، وأنا أنتظر حلم السفر، أما اليوم فغدت مظاهرها عادية: زحمة الأقدام السريعة على الرصيف...ارتداء الملابس الثقيلة...تتبع أخبار الطقس...حمل المظلة خشية الابتلال بالمطر... التطلع للشمس...الركض من أجل اللحاق بأوتوبيس أو مترو أنفاق...الوقوف مع المصطفين في البريد أو أجهزة الصرف الآلي في الطرقات، أصبحت أعيش في هذا النظام كجزء من لوحة كولاج[1]

(1) الكولاج (من الفرنسية، Coller والتي تعني لصق) فن بصري يعتمد على قص ولصق العديد من المواد معا، واستخدام هذه التقنية كان له تأثيره الجذري بين أوساط الرسامين في القرن العشرين. كان الفنان بيكاسو أول من استخدم تقنية الكولاج في الرسومات الزيتية.

رسمتها الأيام هنا بريشة الاغتراب بكل جراءة ووضوح، رأيتني جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة في لندن، فمن حيث اللبس أصبحت الأولوية عندي أيضاً هي التدفئة وليس المظهر.

صرتُ أستخدم محطات المترو في كثير من الأحيان دون الحاجة إلى خارطة أو استفسار من بائعة الزهور أو بائع الصحف عند مداخل المحطات، وعندما أدخل إحداها أنزل عشرات الأمتار لأجد أن للندن وجوهاً أخرى، وجهاً للفن المهمل الباحث عن لقمة عيش باستجداء عطف المارة، وجهاً مليئاً بمحطات جوفية متشابكة، وعندما أصل إلى إحداها في باطن الأرض، أجد أن أناساً قد سبقوني إليها فتجوس عيناي أرجاء المكان، فتتنقل بين صور الإعلانات الكبيرة الملصقة على جدار المترو، وكأنها بذلك تعيد رسم وجه لندن بشكل مغاير، وعندما أمل تلك الصور، تتحرك عيناي هذه المرة لتبحث عن شاشة توضح موعد وصول القطار القادم، وعندما أحس أن الهواء بدأ يداعب ملامح وجهي، أعرف أن القطار قد دنا، فأقف مستعداً، وما إن أركبه حتى ينطلق بي مسرعاً. وفي بعض الأحيان، لا أجد مقعداً فأظل مثل الواقفين المسكين بأطراف متدلية من سقفه، وإن جلست، أطيل النظر في أشباه وجوه الناس التي تعكسها النوافذ الزجاجية للقطار.

تيقنت مع كثرة استخدامي للمترو والتجول في شوارع لندن أن اللندنيين على قدر كبير من التحفظ: فليس لدى الأغلبية منهم الرغبة في الحديث مع الآخرين عندما يقابلونهم في محطات المترو أو الأوتوبيسات أو حتى في الطائرة، ولهذا فكل واحد منهم يحاول أن يشغل نفسه بأي شيء لتفادي الطرف الآخر، كم من مرة ركبت المترو،

وعلى ما فيه من زحام لا أسمع إلا أصوات أنفاسهم، وكم من المرات رأيت بعضهم يقرأ وهو يأكل أو يمشي وهو يقرأ. مظاهر الفردية هذه أعادتني إلى قصة جون غالزوورثي[1] في قصته: "شجرة السفرجل اليابانية"، فإحدى شخصيات القصة الأساسية وهو السيد نيلسون شعر بالفرحة، لأنه كان يتجول وحيداً في الحديقة، ولكن شعر بالحرج عندما رأى جاره السيد تاندرام أمامه في نفس الحديقة، تقول القصة: إن خمس سنوات مضت ولم تحن فرصة لأن يتحدث أحد منهما إلى الآخر على الرغم من أنهما جاران. أعتقد أن غالزوورثي يريد التعبير عن الفردية التي تعيشها المدن الكبيرة مثل مدينة لندن، فكيف لجارين يسكنان بعضهما قريب من الآخر، ولا يعرف أحدهما جاره، وعندما سنحت فرصة اللقاء، لم يكن لدى أي واحد منهما رغبة في الحديث إلى الطرف الآخر.

كنت بين حين وآخر، أشعر بصداع يعكر صفو مزاجي، وعندما عرفت أن سبب صداعي المتجدد بين فترة وأخرى هو نقص فيتامين C بسبب غياب الشمس لفترات طويلة، التي كنت قد تعودت عليها في الرياض، أصبح عصير البرتقال عنصراً أساسياً في كل وجبة إفطار، كما أنني أصبحت أهتم بنشرات الأخبار الجوية، لأعرف إن كان المطر سيهطل أم لا، لأحمل المظلة معي قبل الخروج.

لم يكن صداعي الذي يستمر لعدة أيام، ويرافقني أينما أمضي هو وحده ما طبع ملامح الحزن على وجهي، فاغترابي هنا بشقيه

(1) ولد جون غالزوورثي في لندن عام 1867م . وتلقى تعليمه في هارو و أكسفورد متخصصاً في القانون. توفي عام 1933م.

الزماني والمكاني جعل مشاعري تتبدل تجاه المطر، ففي أيامي الأولى في لندن كنت أفرح عند هطوله، بل إنني كنت أسير في الطرقات والشوارع حتى أجعل المطر يغسلني، كنت أحس بأنني أشارك السماء فرحتها بهطول المطر، ومعي بقايا من حلم حارتنا، وأحياناً أحس أن لندن فرحت بلقائي، وما وجدت أفضل ما تقدمه لي أصدق تعبيراً من المطر. والآن، ومع مرور الأيام، أتفق مع مذيع النشرة عندما يعلن أسفه بأن يوم غد سيكون يوماً ماطرا، ولكم كنت أشعر بضيق وحزن عندما أفتح ستارة غرفتي في الصباح، وأجد أن لندن قد بدت صامتة وحزينة ومكتئبة بسبب أن الأمطار لا تزال تعانقها بود مرفوض منذ البارحة.

أمشي في الشوارع المكتظة بالخطى وبي مشاعر الندم، فالمطر يهطل وأنا أحاول الهروب منه، كأنه صديق يمد لي يده ليصافحني فأشيح بوجهي عنه، ما أمر الحياة عندما ينفصل جزء منك دون إرادتك، أحاول الهرب من هذه المشاعر ولكن دون جدوى، فالمطر يهطل في كل شارع وعلى كل رصيف، فتتكرر حالة الحزن عندما أرى أن مشاعري المليئة بالفرح والابتهاج بسقوط المطر التي نشأت في نفسي منذ الصغر في حارتنا الترابية بالرياض تغيرت وتبدلت إلى أن أصبحت مثار حزن وكآبة واختناق في لندن، فصرتُ وأنا أمشي بين مئات الوجوه في الطرقات أناجي لندن وأسألها:

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟

بلا انتهاء . كالدم المراق، كالجياع

كالحب، كالأطفال، كالموتى . هو المطر.[1]

آه يا مدينة سلبتني حب المطر...

يا مدينة تعيش في أحضان الغيوم في كل الدروب...

وفي كل نهار ومساء...

أتذكر أنني في أول أيام مجيئي إلى هنا، كنت أبحث عن ملامح هذه المدينة بخطاي على أرصفة المجهول والسماء المكتومة، وأرفع يدي نحو سمائها وألوح لها بفرح وأتساءل:

أي وجه ستكشفه لي لندن؟

هكذا جاء السؤال وملامح الترقب ترتسم على ملامحي عندما بدأت أدرك أن للندن عدة وجوه، وكنت قد بدأت التعرف على بعضها، غير أن حيرة لا أدري منتهاها صارت ترافقني وأنا أذرع الطرقات في حيرة عن أي وجه ستمنحه لندن دون غيري من آلاف البشر.

أخذتْ مني شيئاً من طفولتي، بل أخذت جزءاً كبيراً من حياتي، لقد سلبتني حبي للمطر. فكم كنت أستيقظ في صباحات الشتاء بكل فرح مثل العصافير وأجد أطراف منازلنا الطينية وطرقات حارتنا الترابية وقد ابتلت بالمطر، شعرت بالخوف أن لا يمد لي المطر يد صداقته مرة أخرى عندما أعود، أو ربما يمتد كرهي للمطر فيدفن معه ملامح كثيرة من طفولتي وحارتي.

(1) من قصيدة لبدر شاكر السياب . "أنشودة المطر".



صور من حياتي في سكن الطلبة الجديد

عاد مايك من سفره، هل تذكرتموه؟ إنه صاحب السكن الأول، ما علمت بعودته حتى قابلته في بهو السكن، فلقد اتضح لي أنه من الأعضاء أيضا. طلبت منه إرجاع مبلغ الضمان الذي دفعته مسبقاً فرفض، وعندما رأيته مرة أخرى داخل السكن، كررت عليه الطلب، حاول أن يشرح لي أنه لا يحق لي الحصول عليه؛ لأنني لم أقم المدة التي اتفقنا عليها وهي سنة، بعدها أدار لي ظهره ومشى، فما كان مني إلا أن جذبته بقوة من كتفه، وقلت له بصوت عالٍ:

- يجب أن تعطيني المبلغ و إلا سوف أتصرف.

- تفاهم مع غابي.

كان هذا رده بكل برود. ولا أخفيكم أنه أثار غضبي، غابي هذه من التشيك، وكنت أراها في شقته العلوية بين حين وآخر. وبعد عدة أيام

جاءتني في الغرفة، حاولتْ أن تقنعني أن أنسى فكرة استرداد مبلغ الضمان، وحاولت أنا بدوري أن أقنعها أن الغرفة ينقصها الشيء الكثير، وعندما شعرت برفضها لوجهة نظري، فتحت باب غرفتي وطردتها.

بعدها حاول (شنجاري) أن يثير الموضوع مع مدير السكن جون سميث، فكنت أراه يهمس في أذنه عندما يراني، وهو معه في كل مناسبة تجمع الأعضاء مع الطلبة في اليوم المفتوح أو غيره، من حسن الحظ أن سميث لم يتدخل في الموضوع، وبعد مرور أسبوعين تقريباً، رأيت شنجاري يصعد الدرج داخل السكن فقلت له: " إذا لم تعطني نقودي فلسوف أخبر مكتب الضرائب بأنك تؤجر غرف المنزل بصورة غير نظامية". اتصل بي في اليوم التالي وهو منزعج، ولكنه وافق في نهاية المكالمة على استرجاع مبلغ الضمان.

كيف طرأت لي فكرة إبلاغ مكتب الضرائب؟ أتذكرون ماذا قال لي في الأيام الأولى من سكني في منزله؟ ألم يقل: "لو سألك أحد عن صلتك بصاحب المنزل فقل له: إنني أحد أقاربه". وشرح لي أنه يؤجر الغرف دون أن يشعر مكتب الضرائب بذلك، ويعد هذا مخالفة صريحة في عرف مدينة تقدس القانون.

بعدما أخذت مبلغ الضمان وانتهاء هذه القصة بانتصاري تعلمت درساً جديداً في هذه الحياة، فإذا كانت لديك نقطة ضعف أو سر قوي، يجب أن لا تطلع أحداً عليه مهما بلغت قوة علاقتك وثقتك به، فالسر لم توجده الحياة لك إلا ليبقى سراً في ذاتك، وإن خرج إلى إنسان آخر، فثق تماماً أنه لم يعد سراً، فالطريق ممهد له نحو الانتشار والاستغلال.

في يوم من الأيام سنحت لي فرصة لمضايقة شنجاري داخل السكن، فكما قلت لكم سابقاً، فإن فيلماً سينمائياً يُعرض في قاعة مسرح السكن كل يوم أحد، كان (توني)، مدرب كرة القدم البرتغالي للنادي الرياضي هنا، هو نفسه المسؤول عن ترتيب الكراسي، وإحضار الفيلم، وإعداد "الفشار" لبيعه على الحضور، ولما رأيته مشغولاً، عرضت عليه المساعدة، اقترح عليَّ أن أقف على باب الدخول للسينما، وأن أسمح للنزلاء من الطلبة والأعضاء فقط بالدخول المجاني كالمعتاد، أما من يأتون من خارج السكن فعليهم دفع 50 بنساً أي حوالي 3 ريالات.

أخذ الطلبة يدخلون، وأنا أتفحص بطاقات العضوية أو ما يدل على أنهم من السكان، وكان يكفيني أن أرى مفتاح الغرفة لبعض الطلاب، حتى أعرف أنهم من سكان هذا النزل، وعندما جاء زملاء لي من خارج السكن، وهم كثر أدخلتهم مجاناً، وفجأة رأيت شنجاري قادماً يريد الدخول، منعته، فوقفت في وسط المدخل واضعاً جسمي على دفة الباب الكبيرة و يدي على دفة الباب الأخرى، نظر لي نظرة استغراب وغضب في آن، التفتَ إلى (توني) الذي كان مشغولاً ببيع الفشار، وسأله:

- توني ماذا يفعل هذا الشاب هنا ؟

- هو يساعدني اليوم في دخول المتفرجين .

في هذه الأثناء كان بعض الطلبة يدخلون، وهو لا يزال واقفاً والغضب يعلو وجهه، بعدها قلت له :

- نعم... نعم ، لقد تذكرت أنك من الأعضاء، ادخل...ادخل.

كدت أنفجر ضاحكاً عندما رأيت عينيه الحمراوين، و قد جمع وجهه عدة ملامح من الغضب والقهر والاستغراب في آن.

بعد مرور عدة أسابيع من سكني بهذا النزل، لحظت عدم ورود اتصالات هاتفية لي، علمت أن موظفة السنترال لا تسجل الرسائل التلفونية الواردة، كتبتُ شكوى إلى المدير المناوب، الذي اعتذر ووعدني بعدم تكرار هذا، ولكنني حللت هذه المشكلة بمبادرة من عندي أنا بشرائي هاتفاً محمولاً وقد شعرت بارتياح كبير.

لم يكن هذا الموقف الوحيد الذي مر بي في هذا النزل، فلقد مررت بعدد من المواقف التي أصابتني بمشاعر مختلطة من الحزن والشعور بالغربة والتأفف من مجتمع لا يقيم للعلاقات الاجتماعية أي وزن، ففي ظهر أحد الأيام وبعد عودتي من الكلية اتجهت فوراً لمسؤولة السكن، فلقد وجدت رسالة في صندوق بريدي تطلب مني تجديد معلومات الساكنين، وقفت أمام نافذتها، ورحت أبحث بين أكوام من الملابس عن الورقة التي كتبتها، وبينما كنت أبحث في جيوبي إذا بها تغلق النافذة وتذهب إلى المطعم دون اعتذار، ودون الإحساس بأن الواقف أمامها طالب مغترب.

لقد عزز من مشاعر النكد في حياتي هنا ما مر بي في مساء أحد الأيام مع مسؤولة المطعم، فعند الساعة السابعة من مساء كل يوم اعتدت أن أتناول العشاء في مطعم السكن، بطبيعة الحال فرضت عليَّ الحياة هنا أن أتناول العشاء باكراً، فالمطعم يغلق عند هذه الساعة، حيث درج البريطانيون على تناول عشائهم باكراً، عندما

جاء دوري لدفع الحساب، طلبت مني المحاسبة أن أدفع قيمته دون خصم، أي كشخص زائر من خارج السكن بسبب انتهاء بطاقة المطعم، أطلعتها على مفاتيح الغرفة حتى أبرهن لها أنني من السكان الدائمين، ويفترض ألا تسألني عن البطاقة، فهي تراني يومياً تقريباً آكل هنا، ولكنها لم تقتنع.

حاولت أن أقنعها بأنني سأجدد البطاقة بعد الغداء مباشرة، رفضتْ أيضاً، دفعتُ القيمة التي طلبتها كاملة على مضض، كنت أكلمها من مبدأ الثقة، وبعد العشاء توجهت إلى الطابق الأول، ودفعت أجرة الشهر المقبل، وحصلت على بطاقة خصم للمطعم، في مساء اليوم التالي، وعندما جاء دوري لدفع قيمة العشاء، دفعته كاملاً دون نقاش، فأعطيتها ورقة نقدية من فئة (5) جنيهات فأخذتْ تنظر فيها وقتاً طويلاً وهي ترفعها فوق رأسها لترى إن كانت مزورة أم لا، ظللتُ ساكناً حتى انتهت وأعطتني الباقي، فأخذت أرفع العملات المعدنية إلى أعلى كي أفحصها كما كانت تفعل قبل قليل، صرختْ في وجهي:

- Don’t be mean to me!!!

- I am not so. but I am checking my money.

لقد أثار تصرفي هذا كل غضبها، فبينما كنت أتناول عشائي، وجدت أحد مسؤولي السكن فوق رأسي فجاءة، وهو يسألني عن سبب عدم تسديد الأجرة الشهرية، حيث إنها أخبرته بذلك، أجبته بأنني سددتها، وأعاد لي بطاقة المطعم عندما رأى أنها مجددة، في مساء اليوم التالي وجدتها - من سوء حظي - في المطعم وسألتني:

- لماذا لم تستخدم بطاقة الخصم مساء أمس وهي معك؟

- حاولت أن أُثبت لكِ أن المادة ليست عندي كل شيء، فقد كنتُ أشعر بأني جزء من كيان هذا السكن، وأنت تعرفين أنني ساكن دائم، وحزنت لأنك لم تثقي بكلامي. لم ترد هي على كلامي.

ظلت هذه المواقف في نفسي وقتاً طويلاً، لأنها كانت أيضاً البداية التي نبهتني إلى أن هذا المجتمع بدأ يشعرني تدريجياً أن تعامل الإنسان مع الآخر هنا مبني على الأرقام والمنفعة المؤقتة ولا مجال للعلاقات الإنسانية، وأجدها فرصة للحديث معكم عن موقف آخر، فبينما كنت أذاكر في الغرفة، سمعت طرقاً على الباب، فتحته، فإذا بمجموعة من نزلاء السكن يجمعون قيمة التذكرة لأحد زملائهم، حيث توفيت أمه وهو لا يستطيع دفع تذكرة سفره، لا تجمعني بهم صداقة ولا أعرف إلا وجوههم بحكم رؤيتي لهم في السكن مراراً، كان على طاولتي بعض العملات النقدية، ولكنني أمام هذا المصاب الكبير، ملأني الحياء أن أعطيهم إياها، علماً بأنها في مقياس الكرم عندهم تعد كافية، أعطيتهم خمسة جنيهات إسترلينية، فرحوا بها؛ فلم يتوقعوها، ولم أجد في صندوق التبرعات الشفاف أي فئة نقدية ورقية سوى ورقتي، في اليوم التالي، رأيت بعضهم في بهو السكن، مررت بالقرب منهم، توقعت أن يلوحوا بأيديهم عرفاناً لما حدث مني يوم أمس تجاههم، ولكني مررت كعابر بين صخور لا تأبه بمن حولها أو بمن يحركها يميناً ويساراً، من تلك اللحظة كرهت التبرع حتى للمشردين الذين كنت أراهم يخرجون من جحورهم ويقعدون أمام واجهات المحلات بعد أن تغلق أبوابها في شارع أكسفورد.

الموقف الآخر لم يكن له تأثير أقل على مشاعري، ففي أحد مساءات

لندن الكئيبة، كنت أتمنى الخروج مع أي صديق أو زميل، وبينما كنت أمر في الصالة الكبيرة للسكن رأيت مجموعة من الزملاء يستعدون للخروج. أبديت لهم رغبتي بالانضمام إليهم وطلبت منهم انتظاري عدة دقائق لتغيير ملابسي، وبعد دقائق، كنت في المكان المحدد للقاء ولم أجدهم: فلقد ذهبوا وتركوني مع مللي واكتئابي. شعرت بالخذلان ... شعرت بالوحدة المميتة، شعرت بأن مشاعري الإنسانية تكاد لا تجدي هنا، رأيتهم في اليوم التالي ولم يحاول أي منهم أن يقدم اعتذاراً لي على الرغم من أنني لم أتأخر، لا اعتذار.ولا تبرير، و يا قلب لا تحزن ! وصدق المتنبي: « فشر البلاد مكان لا صديق به»[1].

حان وقت الغداء، فخرجت من غرفتي، واتجهت إلى مطعم السكن، فجلست على إحدى الطاولات وشرعت في الأكل، رأيت (ناوايا) يحمل صينية غدائه فأشرت إليه بالجلوس معي. وناوايا هو من الطلاب اليابانيين الذين تعرفت عليهم في هذا السكن، يدرس «البيانو» في Trinity College لمدة ثلاث سنوات، كنت أسمع عن اليابانيين شغفهم بالعمل حتى لو زاد عن الحد المعقول، وقد رأيت ذلك حقيقة واقعة في شخص (ناوايا). فخلال أيام الأسبوع كنت أراه مشغولاً بمواد الجامعة، وفي أيام السبت، يدرِّس في مدرسة تابعة للجالية اليابانية في لندن، ويتقاضى على ذلك 350 جنيهاً إسترلينياً في الشهر، أي حوالي 2100 ريال سعودي، أما في أيام الآحاد، فيذهب إلى مدينة (نوريتش) لعزف البيانو في كنيسة سويسرية، والكنيسة تدفع له أجرة شهرية إضافة إلى قيمة تذكرة سفره بالقطار، كما

(1) من قصيدته . «وا حر قلباه».

أنه جعل لنفسه حياة خاصة، فلا نراه إلا في النادر، وقد ضرب بالنشاطات التي تجري في السكن عرض الحائط. أتذكر جيداً أنني لم أره في تدريبات الإيروبكس التي تقام مرتين في الأسبوع داخل السكن إلا مرة واحدة فقط.

لن أنسى (زمان) فهو أيضاً من الأصحاب الذين تعرفت عليهم في هذا السكن، يحمل الجنسية البريطانية، غير أنه من أصول هندية، هو طيب الخلق معي، ففي كل مرة نخرج في مجموعة صغيرة لمشاهدة السينما، أو لتناول العشاء في أحد مطاعم البيكاديللي، أو الذهاب إلى مقهى، كان يصر على أن يدفع عني، ولكن ما لم يعجبني فيه إصراره الدائم في كل مرة يراني على أن يشتري لي مشروباً ساخنا أو عصير فواكه. لقد أوضحت لي الأيام بمرورها أنه يعاني من عقدة النقص Inferiority Complex. طرأت لي فكرة أن أعرف أكثر عن هذه الشخصية، فبحثت في كتب العلوم النفسية والاجتماعية إلى أن وجدت أن أول من استخدم النقص سمة لبعض أنماط الشخصيات هو الدكتور الفرد أدلر[1]، لقد لاحظ أدلر أن كثيراً من المرضى يميلون إلى ربط شكواهم بقصور في عضو معين في أجسادهم، ولهذا فقد اكتشف أن الإنسان يتحول إلى المرض لكي يحل مشكلاته النفسية ومن ثم فإن هذا القصور يؤثر على حياة الشخص النفسية، فيدفعه إلى تعويض هذا النقص بطرق عديدة.

* * *

(1) الفرد أدلر (1870 . 1937م) ولد في إحدى ضواحي مدينة فيينا ودرس علم النفس وكان من المعجبين بآراء فرويد فانضم إلى جماعة تعرف باسم: التحليل النفسي ". ولكنه اختلف مع هذه الجماعة فتركها عام ١٩١١م.

تمــددت في غرفتــي علــى فراشــي بعــد أن تعبــت مــن المذاكــرة والقــراءة، شعرت بضيق وملل، نهضــت، فتحت ستارة نافذتي. كانت السماء الزرقاء الداكنة تزحف على سماء لندن ببطء ثقيل. مثل هذا الثقــل الذي بدأ يجثم على صدري منــذ الصباح، وشعرت به يتعاظم مع هــذا المساء، عدت إلى فراشي ورميــت بنفسي عليه. وضعت يدي تحــت رأسي، ورحــت أتأمل كل شيء تقــع عليه عينــاي وأمسي، على الجــدار رف خشبي تتربع عليه كتبي، وعلــى الطاولة أسفل منه شيء من دفاتري وأحلامي، على الجدار فوقي علقتُ ورقة كتبت فيها بخط أسود عريض:

أهكذا تمضي أمانينا

نطوي الحياة وليل الموت يطوينا

تجري بنا سفن الأعمار ماخرة

بحر الوجود ولا نلقي مراسينا

هذا أنينك ما بدلت نعمته

وطالما حملت فيه أمانينا[1]

أملأ رئتي بالهواء وأخرجه ببطء، أكرر هذا عدة مرات، لم تنجح حيلتي في التخلص من حالة الضجر التي داهمتني فجاءة. أسائل نفسي: ترى هل أنا الوحيد في هذه المدينة الذي يشعر بمثل هذا الملل؟ طرأت لي فكرة، نهضتُ...فتحت درج خزانة ملابسي...ارتديت

(1) من قصيدة «البحيرة» للفونس دي لامارتين (21 أكتوبر 1790- 28 فبراير 1869) كاتب وشاعر وسياسي فرنسي. ترجمة نقولا فياض.

أول ما وقعت عليه يدي، وخرجت للتجول، مشيت عبر شارع غريت بورتلاند، كانت حركة السيارات والناس أقل مما كانت عليه في نهار هذا اليوم، والليل يحاول أن يتدثر بمعاطف المارة القلائل من هذا البرد، بعض الأنوار بدأت تشتعل، مررت على بقالة، دخلتها، في أحد ممراتها ثمة شخص ما يقترب لون بشرته من لون بشرتي، ينحني ليلتقط علب العصير، تكاد عمامته تقع على الأرض، يعاود التقاط العلب مرة أخرى، ويضعها على الرف في المكان المخصص لها، واحدة من أبناء جلدته تقف في الركن الأيسر خلف آلة تصدر صفيراً كلما أرادت فتحها لمحاسبة الزبائن، مسحت عيناي كل الأرفف التي مررت عليها، لم أشتر شيئاً، خرجت، ونظرات أصحاب المحل تطرق مشاعر صمتي وضجري.

مررت على حانة تخرج منها موسيقى صاخبة برفقتها أضواء مترافصة، يتجمع أمام مدخلها عدة فتيان و فتيات، وهم في حالة نشوة، تري هل هم الذين سرقوا فرحتي وأهدوني ضجرهم؟ شعرت أني وحدي الذي يبكي حظه البائس هذا المساء، وصلت إلى شارع أكسفورد، وجدته هاجعاً مثل بقية شوارع لندن الكبيرة في مثل هذا الوقت، فالرصيف العريض بلا مشاة، والمحلات خلت من المتسوقين ومن أصحابها الذين تركوا واجهاتها الزجاجية مضاءة، لتكشف لعيون الفضوليين من المارة ما بداخلها.

واصلت المشي، وجدت بعض المشردين اتخذوا بعض زوايا هذا الشارع مأوى لقضاء بقية ليلهم مستجدين عطف المارة، كان بعضهم يهذي بصوت مرتفع بطريقة تدعو للضحك، أشعر بالأسى عليهم

لحالتهم التي تثير الشفقة، شعرت بجوع، فوقفت أمام مطعم صغير في شارع متفرع من شارع أكسفورد، اشتريت قطعتين من البيتزا ومضيت، يا لغرابة المكان وتحول الزمان! صرت مثل اللندنيين، آكل وأنا أمشي، أرتدي بنطلون جينز تقطعت أطرافه و تشققت بقع منه فظهرت ركبتي اليمنى وكأنها صخرة سوداء على ضفاف بحر أرزق، عدت إلى غرفتي، انسللت داخل فراشي، ونمت.





مفاجأة سارة

في صباح يوم الأحد الثامن عشر من شهر نوفمبر، استيقظت في هذا اليوم الخامل. اقتربت نحو النافذة. ثم أزحت الستارة كعادتي في كل صباح، وكم كانت المفاجأة كبيرة لي، وأنا أرى لأول مرة في حياتي نتوءات الثلج تتساقط بهدوء. لقد رأيت أسقف المباني والسيارات وأغصان الأشجار العارية مطلية باللون الأبيض. فالثلج الذي بدأ يتساقط منذ فجر هذا اليوم قد كساها بطبقات كثيفة.

أدرت مفتاح «التلفزيون»، لأسمع مذيعة نشرة الأخبار تقول: إنه لأول مرة يتساقط الثلج بمثل هذه الكثافة في شهر نوفمبر منذ 14 عاماً. لقد أشعرني هذا المشهد بأني غريب فعلاً، وبعيد آلاف الأميال عن وطني وناسي، أخذت آلة التصوير وخرجت. صرت ألتقط الصور لكل مشهد يمر من أمامي، فكل الأشياء من حولي الآن تملؤني بالإثارة،

دخلت متنزه (ريجنتس بارك)، وجدت مساحاته الخضراء الشاسعة اختفت تحت بساط طويل وعريض من اللون الأبيض الناصع، معظم الأشجار تخلت عن أوراقها، فبدت الأغصان عارية، وكأن بينها وبين الثلج لقاءً أشبه ما يكون بلقاء بغيض، فرضته الحياة بلا رأفة بتقلبات أيامها.

عدت إلى الغرفة وفي الطريق، راحت ذاكرتي تعود بي إلى مثل أيام الشتاء القارسة هذه، يوم كنت وإخوتي نستيقظ صباحات الشتاء القارسة ونلتف حول كومة من الحطب في منقل حتى إذا ما شعرنا بأن أجسادنا امتلأت بالدفء، خرجنا إلى مدرستنا ونحن نشم في طرقاتنا نسائم بادرة معطرة برائحة الطين والتراب والأشجار المبتلة بالمطر.

خرجت في صباح الثلاثاء إلى الكلية، وكانت نتوءات الثلج ما تزال تتساقط، ولأول مرة أرى السماء والأرض تلتقيان في لون واحد بعيد عن لون النهايات واحتضار الشمس، كنت أمشي بحذر على الرصيف، وأرى الامتعاض على وجوه بعض المارة و سائقي بعض السيارات، أما أنا فكنت أمشي، ومازلت ممتلئاً بالإثارة لرؤية الثلج لأول مرة في حياتي، غير أنهم يمشون بوقعهم السريع، دون أن أرى أيا منهم يقع، أما أنا فكنت متيقناً أنني في أي لحظة ستزل قدمي، وأجدني ممدداً على الرصيف، البعض فضل الانتظار تحت بعض أسقف المباني البارزة، وآخرون فضلوا الجلوس في المقاهي لشرب القهوة والكاباتشينو والشوكولاته الحارة، عندما وصلت الكلية، التقطت بعض الصور مع بعض الزملاء أمام مدخلها والساحة المجاورة لها وسط هذه الأجواء القارسة جداً.

واصلت درجات الحرارة انخفاضها مع دخول شهر ديسمبر، ففي الليل وصلت إلى 3 تحت الصفر. وواصلت الانخفاض إلى أن وصلت في بعض الأيام إلى سبع درجات تحت الصفر. كان عليَّ أن أتكيف مع درجات البرودة الشديدة خاصة أنني أذهب إلى الكلية مشياً على الأقدام، فاشتريت قبعة لتحمي رأسي، وقفازات بعد أن رأيت أن البرد حوَّل أصابعي إلى أطراف متجمدة لا حياة فيها، وأنفي إلى أكوام متراكمة من اللون الأحمر والزهري والبرتقالي معاً. لم أنقطع عن الذهاب إلى الكلية بسبب هذه الأجواء الباردة حتى أغلقت أبوابها في السادس عشر من شهر ديسمبر. أما لندن فقد بدأت تتزين استعداداً لإجازة الكريسمس.

أخذت أيام شهر ديسمبر تتناقص، ولندن لبست ثوباً آخر، فترى بعض الأشجار الصغيرة وقد علق عليها عقود الأنوار المتراقصة، وبألوان مختلفة في كل مكان استعداداً لاحتفالات عيد الميلاد. وفي شارعي (أكسفورد) و(ريجنت) عُلقت عقود خضراء وبها أضواء خافتة متراقصة، بدأت بعض المحلات التجارية الكبيرة مثل (هارودز)، و(ماركس أند سبنسر). و(مس سيلفريجدز) بالإعلان عن تخفيضاتها السنوية التي ينتظرها معظم اللندنيين بفارغ الصبر في هذا الوقت من السنة.

مع قرب نهاية شهر ديسمبر، شعرت بصداع خفيف، تجاهلته اعتقاداً مني أنه صداع عابر. وليتني لم أفعل، فقد تطور هذا الصداع إلى التهاب حاد في حلقي، وارتفاع في درجة الحرارة، وألم لم أعرفه من قبل في الجيوب الأنفية، جسمي يرتعش، ورأسي يكاد أن ينفجر،

عزلني المرض عن الناس، نهضت من سريري لأتحدى هذا الصمت الذي ملأ الغرفة، فلقد ملّ الفراش من جسدي الهزيل، الأرض تدور بي، ولكني أتمالك نفسي خشية السقوط، أدير مفتاح التلفزيون، مذيع النشرة يقول: إن درجة الحرارة لهذه الليلة بلغت 9 تحت الصفر.

يا الله...ما أقساك أيها المرض! ما أقساك أيتها الغربة! فهنا لا أحد يسأل عنك ولا أحد يساعدك، ولا أحد وأنت في مرضك يتذكرك أو يشعرك بأنك في أمس الحاجة إلى لمسة عناية أو رأفة، كم كنت أشعر بالثقل ورأسي يكاد أن ينفجر، سلالم الدرج تتمايل وأنا أنزل للمطعم لتناول الشيء اليسير من الأكل، آكل رغم أنني لا أود الأكل، فلا الشهية موجودة، ولا حاسة التذوق بقيت، ولندن في هذه الأيام تحولت إلى مدينة أشباح، رياح وعواصف وأمطار، السلطات في مطار (هيثرو) حولت الرحلات القادمة إلى مطار لوتن، لأول مرة أحس بأن لهذا المرض طعماً آخر هنا...طعم المرارة والغربة والعزلة عن الناس، ولهذا أصبح وقعه أشد على نفسي وروحي المبعثرة، تتجمع قطرات من الدموع في عيني، ولكني أحبسها، وعندما كثرت ورغبت في الخروج، مسحتها بكفي، صعدت إلى غرفتي، جلست على طاولتي، وأخرجت ورقة وكتبت:

«الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بكثير...والسماء تسح بمطرها لا تزال... الضباب والرياح والرعود يحتضنون لندن... المرض والغربة والبرد أصدقائي الجدد في هذه الأيام، فأناجيهم وأنا منكسر الوجدان، وهذا المطر الذي أسمع طقطقاته الآن على الزجاج يذكرني بأيام الطفولة...أيام الفرح بالمطر إذا هطل...بصوت

نشيج مزاريب الحارة...وأشجار النخيل التي تتراقص سعفاتها مع كل قطرة من المطر...كنت أحب وقتها رائحة الطين إذا ما ارتوى بالمطر، وإذا هجعت الحارة بعد غروب الشمس، أرتمي على فراشي وأمي تحكي لي أحجية حتى يأتي النوم، وإذا ما عرفت أن يوم غدٍ هو يوم عطلة، أستيقظ مع أخي باكراً على غير عادتنا في أيام الدراسة، فنسمع زقزقة العصافير التي استيقظت باكراً مثلنا، نلعب حفاة في أزقة الحارة فنحس ببرودة التربة تلتصق بباطن أقدامنا. نتجول في المزارع القريبة من البيت، وإذا ما مللنا من اللعب نعود تحملنا فرحتنا إلى منازلنا.

حدثيني أيتها النفس عن المزيد من تلك الأيام. أو على الأقل امنحيني شيئاً من دفئها، ثم اجعليها مأوى لذلك الفتى الحزين على شاطئ الغربة البعيد...حدثيني عن تلك الأيام المحفورة بين حنايا السنين الماضية، واجعليها صديقاً أرنو إليه كلما أردت».

* * *

لم يكن ذلك الزكام المرض الوحيد الذي مر بي، فثمة آلام صرت أشعر بها في الجزء الأيسر من بطني، وعندما تكررت ذهبت إلى المستشفى التابع إلى الكلية. غير أن الآلام مع مضي الأيام وطغيان مشاعر الغربة على أي مشاعر أخرى صارت أكثر وجعاً وحدة، عاودتني مراراً، حتى إنها في بعض الأحيان توقظني من منامي، ذهبت إلى المكتب الطبي السعودي في شارع (هارلي) وشكرتهم بعدما حجزوا لي موعداً مع الدكتور ويليامز في غايز هوسبيتال.

في اليوم المحدد ذهبت إلى عيادة الدكتور عبر الخط الأصفر إلى محطة (كينغز كروس)، ومنها غيرت المحطة، وركبت القطار متجهاً إلى محطة مترو (لندن بريدج) عبر الخط الأسود الذي يسمونه هنا (نورثيرن لاين) أو الخط الشمالي.

بعد الكشف ذكر لي أنه لم يجد ما يدعو للقلق، شرح لي كيفية تناول الأدوية التي كتبها، وطلب مني أن أبتعد عن كثرة التفكير، وأن أميل إلى استرخاء قدر الإمكان، تذكرتك يا أدلر، فهل مشاعر الحنين تحولت إلى هذه الآلام التي أصابت القولون عندي أو أن هذه الآلام ما هي إلا تعويض عن مشاعر الفراق التي أصبحت أقاسيها بين حين وآخر؟ ربما...ربما أنك على حق يا أدلر، فأعترف لك أنني ما عرفت هذه الآلام إلا بعدما زادت وطأة الغربة على مشاعري الضعيفة.

عندما خرجت من مكتب الدكتور (ويليامز) أشار عليَّ أن أذهب إلى مكتب سكرتيرته (جين) في نهاية الممر، بعدما سجّلتْ عنواني البريدي ومعلومات أخرى عني، أخرجت محفظتي حتى أدفع قيمة الكشف، ولكنها شرحت لي بأنها سترسل الفاتورة على عنواني البريدي، ومن ثم أعيدها مع "شيك" بقيمتها، تعجبت من هذه الثقة المفرطة، وياله من وجه إيجابي للحياة في لندن وناسها.

هذا الموقف قادني إلى أن أتذكر موقفا أخلاقيا آخر، ففي إحدى الظهيرات وأنا في الكلية، ذهبت إلى العمادة من أجل الحصول على نسخة من مخطط بحثي، غير أن الموظف قال لي: إنه لم يجد في ملفي أي شيء، بعد يوم واحد فقط وصلتني رسالة منه عبر البريد الممتاز فيها نسخة من الأوراق التي طلبتها، ورسالة اعتذار مختصرة منه،

كم راق لي هذا التصرف، فرأيت أن أذهب بنفسي و أشكره، وهذ ما قد تم بالفعل.

لكم تمنيت أن تكون هذه الثقة بين المتعاملين و حب العمل وكفاء الأداء موجودة عندنا، ولكن!!!





تجربة صيام رمضان في الغربة

انتهى شهر ديسمبر، ومن يعش في لندن هذه الأيام فسيشعر أنها عادت إلى الحياة من جديد، فخفت البرودة، وعاد الناس من عطلاتهم ، والدراسة بدأت في جميع مراحلها، فتحت كليتي أيضاً أبوابها، وعدت إلى روتين الحياة الأكاديمية من جديد، بحضور المحاضرات والذهاب إلى مكتبة الكلية لإعداد البحوث ومحاولة اكتشاف عالم لندن في المساء مع بعض الرفقاء.

بعد مضي قرابة شهر ونصف دخل عليّ شهر الصيام، ونحن في شهر فبراير بعد أن أنهيت الفصل الدراسي الأول، وبدأت الفصل الدراسي الثاني، وقبل حلول هذا الشهر الكريم، كنت قد ذهبت إلى المركز الإسلامي في (ريجنتس بارك) ، وأخذت منهم مواعيد الإفطار والإمساك. أتذكر قبل حلول شهر رمضان بأسبوع وبعد أن جلس

الدكتور محمود في مقعده المعتاد في القاعة. بادرته بالتهنئة لقدوم شهر رمضان، ثم ألحقت التهنئة بتوجيه اقتراح أن تبدأ المحاضرات من الساعة العاشرة صباحاً بدلاً من التاسعة. تداولنا الاقتراح بيننا، نحن الطلبة غير أننا لم ننجح.

كم كنت أعاني أشد المعاناة في الذهاب إلى الكلية مشياً وأنا صائم. ففي صباح أول يوم من رمضان، وفي طريقي إلى الكلية الساعة الثامنة والنصف، رأيت كل من حولي يأكل ويشرب. أحسست أنني أنا الصائم الوحيد في هذا العالم. كنت أتحاشى المشي خلف المدخنين الذين يمشون أمامي على الرصيف. أما لجدولي الزمني اليومي فقد تغير وكأنني في الرياض. فأصبحت أسرق ما أجده من ساعات النهار خارج الكلية حتى أنام. وأسهر حتى يحين وقت السحور وصلاة الفجر، أطالع الساعة فإذا حلت الخامسة صباحاً أتناول سحوري الذي لا يتعدى ساندويتش جبن أو بيض مع كوب من العصير. أصلي الفجر، ثم أنام عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً، ثم أصحو عند الساعة الثامنة والنصف، وأذهب إلى الكلية وأنا أرى لندن بكاملها بناسها وشوارعها ومبانيها وسيارتها تتراقص وتتمايل أمامي بسبب قلة النوم.

بعد انتهاء المحاضرات في الساعة الثالثة مساءً تقريباً، أعود إلى غرفتي وأنام، ثم أصحو على صوت المنبه عند الساعة السادسة والنصف، أنزل إلى المطعم لتناول وجبة إفطاري. كنت أضاحك الزملاء وأقول لهم: إنكم تتناولون عشاءكم، أما أنا فهذه وجبة إفطاري.

عندما حل هذا الشهر الفضيل، حمدت الله أن لا توجد محاضرات يومي الاثنين والجمعة، ولكن لن أنسى يوم الخميس الذي هو أقسى أيام الأسبوع بسبب كثرة المحاضرات فيه. كما قلت لكم من قبل، هو متعب قبل رمضان فكيف يكون في أيام طويلة وفي رمضان؟ في أحد أيام الخميس هذه، كنت متعباً إلى حد بعيد بسبب الصيام وقلة النوم، وبعد الانتهاء من حضور إحدى المحاضرات، اتجهت إلى إحدى القاعات الصغيرة بالكلية، أقفلت الباب من خلفي، ورميت بنفسي على الأرض بجانب مدفئة الزيت الجدارية، تكورت على نفسي، ثم التحفت الجاكيت البني الذي كنت ألبسه، لم يستغرق الأمر مني سوى بضع ثوان حتى غصت في نوم عميق، استيقظت، تقرصني خدي، أدعكها، اكتشفت أن فرشة الغرفة تركت شيئاً من تعرجاتها على خدي، لم أدر كم من الوقت مضى، بحثت عن نظارتي، لبستها، دهشت عندما علمت أنني نمت أكثر من ثلاث ساعات.

غسلت وجهي واتجهت لحضور المحاضرة الأخيرة في هذا اليوم، كان وجهي متعباً، وكأني أرتدي غير الوجه المعروف بين الزملاء، لم يحضر الدكتور (مالكم) بعد فوجدتها فرصة للحديث مع عبد اللطيف عن صعوبة الصيام هنا، وجه دعوة لي لتناول وجبة الإفطار معه وزوجته الفرنسية مساء غد، قبلت الدعوة وشكرته، ربما وجهي البائس هو الذي جعله يمد يد الشفقة، هكذا حدثت نفسي، طافت بخيالي أصناف كثيرة من الأكل، ورحت أصنع أجملها وألذها ومعدتي تصفر طلباً للأكل.

عندما حل مساء اليوم التالي، خرجت إلى منزل عبد اللطيف، ركبت قطار مترو الأنفاق الموشح باللون الأسود متوجهاً صوب محطة

(ستوك ويل) جنوب لندن، استقبلني عبد اللطيف وزوجته الفرنسية بترحاب، وقد وضعت ما أحضرته لهم معي على الطاولة في صالة المنزل الصغير، ولجوعي الشديد رحت أتخيل مرة أخرى بأنني آكل من أشهى الأطباق الفرنسية والمغربية، وأنا أبادلهما الحديث، وعندما دخل وقت أذان المغرب، جلسنا على طاولة وليس عليها سوى جبن وعسل وقطعتين من شرائح "التوست" المحمر اليابس.

أخفيت معالم صدمتي، وأنا أشكرهم على حسن ضيافتهم ودعتهم. ركبت قطار مترو الأنفاق، الذي انطلق بي مسرعاً بطقطقاته المعهودة عائداً إلى غرفتي، أخذت أسترجع تفاصيل تلك الضيافة وأنا أرى أشباه الناس والأنوار من نافذة القطار. لقد شعرت بخيبة أمل كبيرة، ومرد هذا الشعور ليس في غياب الأكل الدسم الذي رسمته في مخيلتي بقدر ما هو إخفاق عبد اللطيف وزوجته في فهم معنى "الإفطار" في رمضان. لقد قادني هذا الموقف والقطار لا يزال يمر على عدة محطات إلى إدراك حقيقة. وهي إخفاق بعضنا في التعامل مع مصطلح العبادة في الإسلام وإعطائه المعنى الظاهر في تعاملاتنا اليومية. شعرت بأن المعنى الدلالي لشهر رمضان ليس في الأكل عند الإفطار، أو الامتناع عنه في النهار، أو في تغيير نمط الحياة بقدر ما هو محاولة لإيقاظ الذات من سباتها وجرها نحو ملكوت الله ومحبته من خلال مضاعفة الأعمال الصالحة وتحسس حاجات الفقراء.

حلول عيد الفطر

قرابة الساعة الحادية عشرة مساءً، قمت مضطرباً من على طاولتي عندما تذكرت زكاة الفطر، فغداً يوم عيد، اتصلت بالمركز الإسلامي، وأوضح لي أحدهم أن أضع جنيهين إسترلينيين في الصندوق الموجود أمام مدخل المصلى في الداخل. لبست ملابس رياضية، وأخذت أجري متجهاً نحو المركز، في (ريجنتس بارك)، بعدما وضعت النقود في المكان المخصص لها، قرأت إعلاناً يشير إلى أن صلاة العيد ستقام غداً أكثر من مرة، وفي أوقات مختلفة تفادياً للزحام المتوقع. عزمت على أداء صلاة العيد التي ستقام عند الساعة العاشرة صباحاً.

نهضت في صباح يوم العيد، الذي حل في الثالث عشر من شهر مارس، تناولت إفطاراً خفيفاً، ثم لبست بدلة كاملة من قميص وربطة

عنق، وتعطرت وخرجت أمشي إلى المركز الإسلامي، دخل الخطيب ثم ألقى الخطبة باللغتين العربية والإنجليزية وسط جموع غفيرة من المسلمين، بعدما أديت الصلاة. رفعتُ كفيَّ أدعو الله أن يوفقني في دراستي وأن أعود إلى أهلي سالماً. كما دعوت الله لأمي وأبي وجميع إخوتي، بعد انقضاء الصلاة رأيت كثيراً من أفراد الجاليات الإسلامية يهنئون بعضهم بعضاً. وأنا وحدي وبي مشاعر متداخلة من الفرحة والوحدة، خرجت من المسجد وسط جموع كبيرة رأيتها تمشي أمامي، وجوههم اختلفت عما تعودت أن أراه وسط لندن ولكني شعرت وأنا أمشي وسطها أنها أيضاً ما تزال مجرد «مظاهر»، شعرت بالحزن بسبب مرور أول عيد في حياتي وأنا بعيد عن الأهل، وبسبب إحساسي بعدم الانتماء لهذا الجمع الجديد، جاءت فرحتي بالعيد لهذه السنة مختلفة عمًّا كانت عليه عندما كنت في الرياض. ولكن ما لبث هذا الحزن أن اختفى أمام إحساسي بأن الفرحة هنا ليست بوجودي مع ناس أعرفهم بقدر ما هي محاولة للتمتع بالفرحة في هذا اليوم حتى وإن كنت وحيداً. بدأت أتعلم الاستمتاع بالفرحة مهما صغرتْ على الرغم من اختلاف واقع وطبيعة مشاعري الذاتية عن المشاعر المحيطة بي.

لقد تطور هذا الشعور عندي ونما إلى أن تعلمت كيف أضحك أمام الأقارب والأصدقاء الجالسين من حولي وقلبي يتجرع مرارة الألم، وبما أن يوم العيد حل يوم الأحد فقد أبدلت ملابسي عند وصولي إلى غرفتي، وذهبت عند الساعة الثالثة مساء لألعب التنس الأرضي في متنزه (ريجنتس بارك) كعادتي في معظم مساءات أيام الآحاد.

الفراغ الروحي والبحث عن هوية

في هذه الأيام كثرت عليّ كتابة الواجبات والأعمال التي عليّ ترجمتها من لغة إلى أخرى. هذا فضلاً عن حل بعض الواجبات وكتابة مقالات صغيرة لمادتي النحو المقارن ونظرية الترجمة. في يوم مشحون مثل هذا، نسيت أن أصلي صلاة الظهر، وعندما حلت صلاة العصر وأنا مازلت منهمكاً في واجباتي وكتابة بحوثي في المكتبة. ولضيق المكان في غرفة الصلاة بالطابق الثالث، نويت أن أصليها إذا رجعت إلى غرفتي.

وأنا في المكتبة داهمني الظلام فجأة دون وعي مني بمرور الوقت وغاب عن ذهني أن الليل يحل باكراً. توجهت إلى غرفتي على عجل، وبعد راحة نزلت لتناول العشاء قرابة الساعة السادسة مساء، فجأة انتفض جسمي عندما أدركت أنني لم أصل الظهر والعصر، توضأت وصليتهما، ثم صليت المغرب بعد يوم حافل من المذاكرة والمشي في الزحام وصخب الحياة.

في تلك اللحظة داهمني شعور غريب لأول مرة يمر بي في حياتي، شعرت أن الدين، في تلك اللحظة، انتشلني من هذا العالم المادي حولي إلى عالم مليء بالروحانية والطمأنينة، وأن هذه الحياة ليست - فقط - الركض والجري وراء المادة والمادة فحسب، الحياة مليئة بالأشياء التي تجعلنا نفكر فيها، أن نكون أكثر إنسانية وتراحماً فيما بيننا.

لاحظت أن الناس هنا لا يولون للدين أي اهتمام، و ليس له أي أثر، ولا ينطبق هذا الكلام، مع الأسف، على معظم أبناء الهنود والباكستانيين المسلمين ممن هاجر آباؤهم إلى بريطانيا منذ عقدين من الزمن أو أكثر تقريباً، فلم يبق لهم من الإسلام إلا أسماؤهم العربية، وكنت أعتقد أن الناس في أول أيامي هنا في لندن متدينون بتعليقهم الصليب، وقد تفننوا في أشكاله وألوانه، ولكن مع مضي شهوري هنا أدركت أنهم يلبسونه حلية أكثر من كونه رمزاً دينياً، ظهر لي بوضوح أن الناس هنا أبدلوا بالدين مشاغل حياتهم الشخصية والاهتمام بالعمل، وما قد يعينهم في صراع البقاء والحلم الكبير بقضاء إجازة تحت أشعة الشمس والرمال البيضاء، ولهذا تراجعت القيم الأخلاقية والإنسانية الروحانية في ظل غياب الدين والتركيز على مبادئ الحضارة الصناعية.

لعل حالة هذا المجتمع الصناعي قادت أحد أهم شعراء العصر الحديث وهو الشاعر الأمريكي، البريطاني الأصل تي.اس إليوت[1]

(1) توماس ستيرنز إليوت شاعر ومسرحي وناقد أدبي حائزٌ على جائزة نوبل في الأدب عام 1948. وُلد في 26 سبتمبر 1888 وتوفي 4 يناير 1965. من قصائده: أغنية حب جي. ألفرد بروفروك. الأرض اليباب. الرجال الجوف. ومن مسرحياته: "جريمة في الكاتدرائية".

إلى كتابة قصيدته الشهيرة (الأرض الخراب) أو The Waste Land، ففي نظر إليوت أن هذه الأرض الخراب ما هي إلا صورة للمجتمع الأوروبي بعد الحرب العالمية الأولى، حيث شهدت تلك السنوات اضمحلالاً في الأخلاق والإيمان بقوة الحياة المادية:

إن أبريل أشد الشهور قسوة

فيه تنمو زهور الليلك من الأرض الميتة،

وفيه تنتفض الجذور الخاملة بمطر الربيع

لقد شملنا الدفء أثناء الشتاء

وغطيت الأرض بالجليد في غفلة منا.

إن شهر أبريل الذي تصحو فيه الطبيعة بعد سبات الشتاء يعده أهل الأرض الخراب أكثر الشهور قسوة، ولهذا يحاولون نسيان هذه الحقيقة المرة من خلال استرجاع الماضي وذكرياته البريئة:

ووقفنا عند الرواق، ثم خرجنا إلى ضوء الشمس حتى وصلنا إلى المتنزه، وشربنا القهوة، ثم تحادثنا ساعة.

وبعد استعراض هذه الذكريات التي تعود إلى سنوات الطفولة، يشير تاريسياس،المتحدث في القصيدة إلى النظر في هذه الأرض الخراب:

ما هذه الجذور المتشابكة وأي غصون تنمو من هذه الأنقاض المتحجرة ؟

لقد جاء الدين الإسلامي ليحدد علاقة المسلم بربه من خلال العبادة.قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾، هنا مشروع عبادة، ولكن لم يغفل الدين الإسلامي في نفس الوقت عن تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والمجتمعات، فهناك الكثير من الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة التي تحث على الأخلاق، والسعي للعمل والكسب الحلال، وتنظيم العلاقات في أفراد المجتمع والحث على أفضلها مثل ترك النميمة والنفاق والحث على فعل الخير وإن كان يسيراً. كما أن الإسلام ينظر إلى الفرد بأنه خليفة الله في الأرض، وهو مسؤول عن إعمارها وإقامة العدل فيها، وليس وجوده على هذه الأرض بسبب خطيئة كما يعتقد المسيحيون، قال تعالى: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾.

لقد أحسست إحساساً قوياً هنا بأن الشخصية المسلمة تعيش داخل سياج وهمي وعليها ألا تتخطاه، وإذا تخطت هذا السياج بارتكابها الكبائر، فإن المجال مفتوح لها للعودة إلى داخل هذا السياج بالتوبة النصوح إلى الله، أما الشخصية غير المؤمنة، فإنها تعيش حالة من الفراغ الروحي الأجوف، فكل شيء تراه متاحاً لها، ولهذا فهي تشعر بأنها تعيش حرية مطلقة دون قيد أو شرط ، ولذا تجد أن أحدهم يحاول أن يمشي في أي طريق دون وضع اعتبارات اجتماعية، أو دينية، أو أخلاقية حتى وإن كان مسلك هذا الطريق غريباً عن الفطرة الإنسانية وأخلاقياتها، فالمجال مفتوح لتجربة أي شيء في ظل غياب الوازع الديني. وهذا الوازع، صديقي المخلص هنا ، قادني إلى الخلاص من صراع داخلي مرير مررت به، أتدرون ماذا حدث؟ في أحد الأيام، أقمنا حفلة صغيرة في السكن بمناسبة توديعنا لأحد

الزملاء الذي كان يقيم بغرفة مجاورة لنا ضمن نُزلنا، فسنحت لي فرصة اللقاء بمن لفتت أنظاري، منذ الوهلة الأولى شعرت بعاطفة تجاهها، إلى شيء لم أفهمه وقتها. شيء يجمع بين الإثارة والإعجاب، حاولت أن أقف وجهاً منيعاً ضد هذا المشاعر. فانقسمت ذاتي بين الرغبة وبين الخوف من ارتكاب أي غلطة قد أندم عليها، تارة تحدثني نفسي الأمارة بالسوء أن أقدم وأتوب بعدها، ولكن فجأة تصحو النفس الأخرى وتنهاني عن الإقدام على هذه المعصية. بدأت نفسي الأمارة بالسوءبالاستعداد لتلك اللحظة، غير أن النفس الخائفة من الله انتصرت أخيراً بعد صراع داخلي عنيف، ولم يكن ذاك بسبب خوفي من الخوض في التجربة ذاتها، ولكني تذكرت وصية ربنا سبحانه بأن لا أشرع في الخطوات التي تؤدي إلى ارتكاب هذه الكبيرة: فكيف بالوقوع فيها؟ قال - الله تعالى- : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾.

هذه التجربة قادتني إلى شعور بأن العقل المرتبط بقيمة دينية قادر على أن يحرك الوعي في الذات، ويوجهها التوجيه الصحيح، وأن يجعلها قوية أمام النفس الأمارة بالسوء، وأن يقودها إلى مرافئ الأمان والخلاص عند مواجهة الشهوات والملذات.

* * *

إن غياب الدين في حياة مجتمع مثل مجتمع لندن لا يعني أن هذا المجتمع تنقصه الفضائل الاجتماعية، فقد وجدته مجتمعاً يحترم المواعيد، والإخلاص في العمل، والنظام الذي رأيته ملموساً أينما

ذهبت، والثقة في التعامل، وهذه الفضائل يمكن أن تلمسها إذا بدأت تتعامل مع المؤسسات المختلفة في لندن، ودعوني أسوق لكم بعضاً من هذه المواقف التي وقعت لي شخصياً.

ففي أحد لأيام، كنت في شارع أكسفورد، ولما كنت متعباً طرأت لي فكرة أن استأجر سيارة أجرة، رفعت يدي مشيراً لإحداها ولكنها لم تقف، تكرر هذا المشهد مع سيارة أخرى ولكنها أيضاً لم تقف، علتني الدهشة فعلاً، بعدها أدركت أنني أقف أمام منطقة مرسومة مثل أسنان المنشار، وهي تعني بلغة المرور في لندن: "ممنوع الانتظار هنا مهما كانت الأسباب". فسائق التاكسي هنا لديه الاستعداد أن يضحي بالربح الشخصي مقابل الالتزام بالنظام.

في هذا الشارع بالذات كنت أرى عشرات الحافلات الحمراء والسيارات الصغيرة وسيارات الأجرة ولكن لا أسمع أصوات أبواق، ولا أحد يخالف النظام في السير، علماً بأن الحاجز بين الاتجاهين فقط خط مرسوم على الإسفلت.

كذلك مما لحظته أن الفرد هنا لا يعيب الآخر أو ينتقد عليه أفعاله، فمرة دخلت إحدى دورات المياه الموجودة أسفل الكلية فوجدت أحد منسوبيها يحلق ذقنه، وهو منهمك في الحلاقة، فلم أشاهد أحداً يسخر منه، أو ينتقده على هذا الفعل أو يضحك منه، لو كان أحد أساتذتنا في قسم الأدب الإنجليزي بكلية الآداب بالرياض يحلق ذقنه، ودخل أحدنا عليه فجاءة ماذا يا ترى ستكون ردة الفعل؟

واذا اشتريت شيئاً ولم يعجبك، وأردت إرجاعه لأي سبب من الأسباب فلن تجد صعوبة في هذا، لم يعجبني مضرب التنس الأرضي

الذي اشتريته من أحد محلات الرياضة، ولحسن الحظ فقد كانت الفاتورة لا تزال معي، ذهبت لذلك المحل وعلى الفور أبدلته دون أي اعتراض منهم، وهذا الموقف يختلف عن التعامل مع البائع في الرياض، ويدل على ذلك العبارة الموجودة داخل المحل أو المكتوبة في الفاتورة، وهي: " البضاعة التي تباع لا ترد ولا تستبدل" .





يوم آخر في لندن

مع مرور الأيام أصبحت درجات الحرارة ترتفع، ومعها تبدلت مظاهر الحياة في لندن، فمع تحسن حالة الجو وبزوغ الشمس لفترات أطول مما مضى أصبح كثير من اللندنيين يقضون أوقاتاً طويلة في المتنزهات والحدائق العامة، مستلقين على العشب الأخضر، كأنهم يشربون أشعة الشمس ولكنهم لا يرتوون.

وضعت محلات القهوة والحانات بعض المقاعد على الرصيف، جلست على أحدها ذات يوم وأنا أقرأ جريدة، وإذا ما رشفت رشفة من كوبي أترك القراءة لبرهة، وأتفرس في الوجوه العابرة التي تمشي معاً، ولكنها لا تنتمي بعضها لبعض بأي صلة، أرشف رشفة من قهوتي مرة أخرى، أحس بثقل مرارتها في فمي هذه المرة، تذكرني بمرارة الغربة في بعض أيامها، أقلب الجريدة، أنتهي من قراءتها،

أرى كثيرين من الناس لا يتكلمون مع بعضهم، وأنا في وحدتي مثلهم، وجدتني أسبح في تراتيل اغترابي هنا، ملئت بهواجس بعضها يدعو للغرابة وبعضها يستدعيني لأتوقف عنده، ترى هل تستطيع المدن أن تسلب من زوارها بعضاً من أشيائهم؟ كم طفت أبحث في ذاكرتي عن الرياض، أجد صورة صغيرة لها محشورة بين صور كبيرة لمحطات المترو والحافلات الحمراء والمباني الشاهقة، ونهر تعلوه عدة جسور.

أضع قيمة القهوة على الطاولة وأمشي إلى سكني، تطول الطرقات بي وأنا ما زلت أمشي، تغريني بعض المحلات للوقوف أمامها للنظر في معروضاتها، أجد صورة لي معلقة على زجاجها، صورة ضبابية غامضة حتى لي أنا، عدت أمشي وأطوف على العديد من المحلات والأرصفة، وأنا وحيد غريب.

دخلت غرفتي وأنا أفكر بما سأفعله غداً، فيوم غد يوم سبت ولا أحب أن أقضيه في عزلة، في ظهر اليوم التالي، أخذت آلة التصوير ووضعت حقيبة على ظهري فيها كتاب وتفاحة وقارورة ماء وخارطة للندن، خرجت إلى منطقة (كامدن تاون)، فثمة شيء، وربما أشياء تجذبني لأعود إلى هذه المنطقة، ما إن خرجت من المحطة المسماة باسمها حتى وقعت عيناي على واجهات المباني الغريبة في أشكالها وتعدد ألوانها، فهذه بناية بلون أصفر، وبقربها أخرى بلون أحمر ثم أزرق، وبناية رابعة بلون برتقالي، لم يكن يميز تلك المباني ألوانها فحسب، فبعضها تفنن في رسم مجسمات على واجهاتها، فأحدها وضع مجسم لسمكة كبيرة تتدلى من أنفها حلقة حديدية، ومبنى آخر علق حذاءً كبيراً أصفر اللون، التقطت بعض الصور، وعدت لمواصلة التجول.

كنت أجد صعوبة في المشي، فالأرصفة لم تتحمل كثرة المشاة عليها، فتركت بعضهم يمشون على أطراف الطريق، مررت على محلات غريبة بعض الشيء عني بسبب الأشياء التي تبيعها، أو الخدمات التي تقدمها لزبائنها. وقفت أمام أحد تلك المحلات وعرفت أنهم يقومون «بتخريم» الأنف أو الأذن أو أي جزء من الوجه يريده العملاء من الرجال، قلت لنفسي وأنا أبتسم لو علقت بعض الحلي والدبابيس على طرف أنفي وأذني ثم أصور نفسي وأرسل الصورة إلى أبي وإخوتي، ترى كيف ستكون ردة فعلهم؟

أخرجت كتاباً صغيراً يحكي بإيجاز عن تاريخ هذه المنطقة، وكيف أنها كانت منطقة زراعية ومعزولة في القرن التاسع عشر، وكانت قناتها هي التي تربط وسط لندن بمناطقها الشمالية مثل (هامستيد) و(فنشلي).

مررت على جسر يعلو قناة صغيرة، ما إن توسطتها حتى رأيت قارباً طويل الشكل وأخضر اللون، مثل لون الأشجار الكثيفة المطلة على ضفتيها، عدت للمشي، دخلت منطقة مليئة بكل شيء، مليئة بالباعة الذين أتوا من دول مختلفة، وبالملابس والكتب المستعملة والتحف والأطعمة القادمة من الهند والصين وحتى الأطعمة العربية.

غصت في الزحام و أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذه المنطقة، داهمني إحساس وأنا أتجول بين ممراتها ومحلاتها: أن لندن وبرغم كونها تعد من أكبر عواصم العالم صخباً وزحاماً. إلا أنها تسعى جاهدة لأن تمنح كل الثقافات التي تعيش على ضفاف أرصفتها وبحيراتها الوجه المناسب لها، رغم اختلاف عاداتها وتعدد لهجاتها، واختلاف دياناتها وألوانها.



الامتحانات النهائية وشيء من أرق الغربة

تلقيت رسالة عبر البريد من الكلية، فتحتها فإذا بها جدول الامتحانات، الذي يوضح تاريخ اختبار كل مادة، والمكان الذي سيعقد فيه كل امتحان، بدأت الاستعداد للامتحانات بكل جد واجتهاد، فكرست معظم وقتي للمذاكرة والبحث والتدريب على ترجمة بعض النصوص، وعرضها على الدكتور محمود لتصحيحها، كنت أستفيد من نقاشه حول ترجماتي.

مر عليّ عيد الأضحى وكنت في هذه المرة أقل حزناً من العيد الذي مضى، فقد أصبحت أكثر تكيفاً مع الحياة هنا، انتهت فترة الامتحانات بعد أن دامت عشرة أيام، ومعها انتهت فترة ارتباطي بالمواد الدراسية النظرية تماماً. بعدها بدأت العمل في بحثي لنيل درجة الماجستير. وافق الدكتور توماس على أن يشرف على الرسالة،

بعد عدة أيام عرضت عليه عدة مواضيع للكتابة عنها، اتفقنا على موضوع مناقشة المشكلات التي تواجه المترجم عند ترجمة نص ما من نواحي عديدة، سواء كانت من النواحي الأسلوبية أو الثقافية أو النحوية أو الأدبية، وما يطرأ على النص المُتَرجم من تغييرات بعد الترجمة.

أصبحت أزور الدكتور توماس في مكتبه بين الحين والآخر، داومت على هذه الحال من القراءة والكتابة وأعرض ما أكتبه في الرسالة على الدكتور توماس إلى أن أتممتها، بعد ذلك طبعتها وسلمتها له في شكلها النهائي، حصلت على درجة جيد جداً، أثارت في نفسي تلك النتيجة كماً كبيراً من البهجة والفرحة، بعدها ظللت عدة أيام أترقب النتيجة النهائية.

ذهبت إلى الكلية لاستلام النتيجة النهائية بعد أن علمت من عبد اللطيف أنه استلم شهادته، حمدت الله عندما وجدت نفسي من ضمن الناجحين في هذا البرنامج وحصلت على درجة الماجستير في مجال اللغويات والترجمة، لم يرسب منا إلا أمينة، تلكم الطالبة التي حدثتكم عنها مسبقاً.

سبق لي أن أبديت رغبتي للمشرف في الملحقية السعودية عن رغبتي في مواصلة دراستي لمرحلة الدكتوراه، فشرح لي أنه يجب علي إحضار شهادة الماجستير من أجل تتمة الطلب، ولهذا ذهبت إلى عمادة الكلية وشرحت لهم الأمر، طلبوا مني أن أوجه لهم خطاباً أشرح فيه رغبتي، بعد عدة أيام تلقيتها بالبريد في ظرف بريدي مقوى، وعلى الفور توجهت إلى الملحقية السعودية التي قامت مشكورة

بتمديد بعثتي أربعة أشهر، بعد أن أتممت الأوراق الرسمية، وبعد حصولي على قبول من الكلية نفسها لدراسة الدكتوراه، وأرسل طلب التمديد إلى لجنة الابتعاث في عملي بالرياض لإبداء وجهة نظرهم.

في هذه الأثناء، بدأت العمل في مشروع دراستي لمرحلة الدكتوراه، بطبيعة الحال وبعد انتهاء دراستي للماجستير، تفرق الزملاء، صرت لا أعرف إلا القلة من رفقاء السكن، حتى هؤلاء الرفقاء وجدتني أعتزلتهم فترات طويلة بسبب العمل في مشروع بحث الدكتوراه، كان موضوع بحثي:

The Holy Quran Through The Prism
Of Translation

كنت أنوي اختيار آيات من القرآن ومناقشة ما الذي يحدث لها بعد الترجمة، أنتم تعرفون أن النص القرآني ليس نصاً سهلاً لترجمته، فالنص القرآني يمكن تفكيكه إلى عدة مستويات سواء كانت بلاغية أو أسلوبية أو ثقافية.

رآني الدكتور محمود مرة في إحدى ممرات الكلية وحذرني من أن موضوعي هذا ليس سهلاً، وطلب مني عدم استعجال الكتابة وأن أبحث في موضوع آخر، غير أنني ولرغبتي في الكتابة عن هذا الموضوع، صرت أقضي وقتاً طويلاً في المكتبة وأحياناً في غرفتي بين أكوام مختلطة من الورق، والكتب، والأوراق المصورة، اعتزلت كثيراً من أنشطة السكن، وعندما امتدت هذه العزلة عدة أسابيع، اشتعلت في نفسي مشاعر الحنين للأهل والوطن، وعلى الرغم من محاولاتي للسيطرة والتغلب على الغربة، إلا أنها في بعض الأحيان تنتصر، ففي

ليلة من ليالي أكتوبر الباردة جداً، وعندما تعبت من الكتابة وأنا في غرفتي ليس برفقتي سوى الوحدة والصمت، شعرت شعوراً حقيقاً بفقدان أمي وأبي واخوتي، تمنيت لو أن لي قوة خارقة تنقلني إليهم الآن في لحظات، أطلت النظر في صور إخوتي، أسترجع ذكرياتي معهم، استرجعت يوم الوداع.

أتذكر وجه أمي فجاءة وهي تطل من ناحية المنزل، تريد أن تودعني فلا تقوى على ذلك فترجع، تذكرت بعد وصولي إلى لندن بعدة أيام اتصال أخي ليخبرني بأن أمي قد مرضت بسببي وهي تبكي، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فسقطت دموعي، سقطت تمشي على عجل على خدي ويا لها من دموع! لها طعم المرارة والحرقة معاً، وأنا غريب أبعد آلاف الكيلومترات عن أهلي وناسي، نهضت من على كرسيي وأنا أبكي، فو الله إنني لم أستطع أن أكف سيل دموعي.

يا ليتني ذهبت إليها وقبَّلتُ رأسها ويديها، ولكن ما تفيد ليت الآن بعد مرور هذه الأسابيع والشهور، تخنقني عبراتي كلما تذكرتها وهي تدخل عليَّ وأنا أذاكر استعداداً للامتحانات في مجلس بيتنا القديم، وهي تحمل إبريق الشاي الذي أعدته، فما إن تضعه حتى أرى كفيها ترتفعان مع أصوات المآذن، داعية الله أن يوفقني وأن يحقق أحلامي، أطل عبر نافذة غرفتي، فأرى من بعيد بعض المارة وقد التحفوا أكواماً من الملابس، أحياناً يبدو الشارع خالياً من المارة، أرى ومضات إشارات المرور، وكأنها الرمز الوحيد للحياة.

أدير مفتاح الراديو في بحث يائس عن إذاعة الرياض، أسمع ذبذبات، وموجات بلغات شتى، منها ما عرفته ومنها ما لم أعرفه، لم

أجد إذاعة الرياض، بحثت عبر الموجة القصيرة و المتوسطة، ولكن دون جدوى،أخيراً لجأت إلى الاستماع إلى بعض البرامج التي سبق أن سجلتها وأنا في الرياض مثل (نبض القوافي) الذي كان يذاع في الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل، والبرنامج الآخر (قبل الختام) الذي يذاع في الساعة الثانية إلا ربعاً قبل انتهاء برامج الإذاعة في الساعة الثانية صباحاً. أسمع قصائد مصحوبة بموسيقى هادئة، أعددت كوباً من القهوة السوداء، ثم أطفأت جميع المصابيح الكهربائية ما عدا مصباح القراءة الخافت المتربع على طاولتي، تراقصت الذكريات في مخيلتي بين مزيج من الفرح والحزن معاً، قطع تفكيري المذيع عندما قرأ :

أأحمد
كيف نفضت الصبا
وسرت مع الزورق المبحر
عبرت على ربوات الشباب وغبت
كأنك لم تعبر
فما ذكرتك ليالي المنى
ولا طفت في خاطر السمر
وما زال نجم المساء البعيد يضيء
ببعدك لم يشعر [1]

(1) من قصيدة معالي الوزير الدكتور غازي القصيبي: «نموت».

لا أدري أي شعور اعتراني وأنا أسمع هذه الأبيات وسط أكوام من الوحدة والحنين والغربة والذكريات؟ أحسست أن أحمد المذكور في القصيدة هو أنا. أعدت سماعها مرة أخرى، ثم مرات، ووالله إن عيني امتلأتا بالدموع، وسقطت للمرة الألف رغماً عني. يا لها من ليلة مليئة بالحزن والدموع!

حاولت الخروج من هذه المشاعر. ففتحت الأنوار ولبست الثوب والغترة والعقال وفجأة غمرتني فرحة وسعادة لم أكن أتصور أن تصل إلى هذا الحد. فشعرت وكأني بين أهلي ورفقائي، أخرجت من تحت السرير أعداداً من جريدة الرياض سبق أن أخذتها من الملحقية في يوم مضى، وطفت أقرؤها على مهل بكل شوق وتلهف.

هذه الفرحة ذكرتني بفرحة أخرى مررت بها هنا. فعندما كنت أقلب صندوق البريد الخاص في الكلية الذي يسمى Pigeon wholes وجدت رسالة من السفارة السعودية، فتحتها فإذا بها بطاقة تهنئة من سعادة السفير الدكتور غازي القصيبي بحلول عيد الفطر. وعلى غلاف البطاقة رسمة مسجد لإحدى طالبات أكاديمية الملك فهد في لندن، يا لها من فكرة أوجدت في نفسي الممزقة بين الغربة والحنين فرحة كبيرة! لقد أحسست بأن لهذه البطاقة معنى وهو على الرغم من أنني أعيش وحدي هنا، إلا أن اسمي لم يصبح من مخلفات الزمان، كما أحسست أن الفكرة هي محاولة لربط المغترب بدلالات زمانية، وكأنه بين أهله وأصحابه. لقد شعرت في تلك اللحظات بالانتماء... بأني لست منسياً، وقد تكرر حصولي على هذه البطاقة بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك مع تغيير الصورة التي على البطاقة.

الخريف يمر من هنا

واصلت اجتماعاتي بالدكتور توماس، وواصلت قراءاتي لإعداد بحث الدكتوراه في المكتبة، وبالبحث بين المكتبات، وجدت عدة ترجمات لمعاني القرآن الكريم، كما أنني ذهبت إلى مدينة (ريدنغ) التي تبعد عن لندن ساعتين بالقطار لجمع بعض المواد والنصوص من مكتبة جامعتها المسماة باسمها، ومضت الأيام وأنا أواصل البحث والتعمق في القراءة ومن ثم الكتابة. بطبيعة الحال تفرق أصحاب الدراسة فلم أعد أرى منهم أحداً، ومع تركيزي على البحث قل أيضاً خروجي مع زملاء السكن.

كنت أخرج - أحياناً - لأمشي في طرقات لندن حتى أخرج من عالم الصمت الذي أعيش فيه أصبحت مثل طفل راح يلعب فأراد أن يعود إلى بيته فضل الطريق، بقيت على هذه الحالة فصلاً دراسياً كاملاً إلى أن جاءني اتصال من الرياض أزال في لحظة كل مظاهر الفرح للحصول على شهادة الدكتوراه. فلجنة الابتعاث في وزارة الخدمة

المدنية رفضت تمديد فترة بعثتي، بحجة أن شهادة الماجستير كافية في الإدارة التي أعمل بها وعلى الفور. أخطرت الكلية بذلك رسمياً، بعد ذلك اتجهت إلى الملحقية الثقافية السعودية، وأنهيت جميع الإجراءات المتبعة في نهاية بعثة موظف.

أخبرت زملائي بأنني سوف أغادر إلى الرياض غداً، ولهذا قررنا أن نقضي هذه الليلة معاً، عندما كنا نضحك، ونسترجع أيامنا التي قضيناها معاً، كنتُ أشعر بمزيج من الحزن والفرح، كنت أضحك أمامهم وأنا أبكي في داخلي على ضياع فرصة الدكتوراه وعلى فراقي لهم، يا لها من ليلة من ليالي لندن الكئيبة! أهكذا أيامي فيها تنتهي بهذه السرعة؟ أهكذا حلمي، بلا دموع، يموت في لحظة فأحزن في كل لحظة ألف مرة ؟

خرجنا بعد العشاء للمشي. وعندما وصلنا إلى تقاطع شارع (أكسفورد) مع شارع (غريت بورتلاند)، كان علينا أن نفترق. لم أستطع التحدث، غاصت والله الكلمات في حلقي ورفضتْ الخروج، وكأنها بدورها لا تريد أن تودعهم. فودعتهم بنظراتي، بكى منهم من بكى، ألوّح بيدي لهم في الوقت الذي بدأتُ أبتعد عنهم شيئاً فشيئاً، وهم ما برحوا في مكانهم يلوحون مودعين. وما أن أدرت ظهري، حتى كادت دموعي أن تسقط.

دخلت غرفتي اتجهت صوب نافذتها. أزحت الستارة، أخذت أتأمل المارة والمباني والشارع القريب من السكن والشجرة الكبيرة عند المدخل، وكأني أشاهد هذا المنظر لأول مرة، كم وددت لو أقبله وهو الذي كان قبل عدة أيام مثار كآبة واختناق، فكلما فتحت ستارة غرفتي وجدت السماء تبكي مثلما بكيت البارحة.

لم أكن أتخيل أن فراقي للزملاء ولندن سيكون بهذه السرعة

وهكذا فجاءة، لم أعتقد أبداً في يوم من الأيام أن أصدقائي هنا هم في الواقع أصدقاء عابرون، نظراً للعلاقة القوية التي تربطنا، ونحن من أقطار مختلفة، قبل أن أنام، حزمت حقائبي استعداداً للسفر مساء الغد.

عندما اقتربت الساعة لتعلن عن الثالثة مساء، قمت أنقل حقائبي وأغراضي، صرت أجمعها أمام مدخل السكن، وفي الوقت المحدد، جاءت سيارة الأجرة، نزل صاحبها وساعدني في حملها، ثم توجه بي صوب مطار هيثرو، أخذت أنظر عبر نافذة السيارة، يا الله... هاهي لندن تودعني بشوارعها وناسها ومطرها...ذلك المطر الذي كان بالأمس مثار فزع وكآبة لي أصبح اليوم غير ذاك...عاد الشوق والحنين إليه بعد فراق دام عدة أشهر بيني وبينه.

شعرت أن المطر ما هطل اليوم إلا ليودعني وليبلل أيام وحدتي ليجعلها تورق من بين حنايا النفس بذكريات لا تنسى على شواطئ الغربة، أيام لن تعود أبداً بحلوها ومرها، ألقيت نظرات الوداع الأخيرة على لندن، أحسست أنها تبكي بالمطر من أجلي، ليتني أستطيع أن أجعل هذا المساء يطول، فلا سفر، ولا رحلة وداع، لكنه الزمن العنيد جعلني أحس أني مخلوق ضعيف، ضعت في أسئلة الزمان وحيرة المكان، أبحث عن إجابة للغريب الذي كان يوماً وحيداً هنا، ثم أصبح صديقاً لهذه المدينة، مدينة تدعى لندن.

أوَتذكرني لندن بعد أن أغادر؟ وهل ستذكر أني في أيام مضت، كنت أخطو في شوارعها بكل فرح وابتهاج؟ أو يا ترى هل ستعرفني إذا ما عدت إليها من بين ألوف الوجوه التي تركض على أرصفتها؟ ما أصعب الفراق، ولكنها النهاية وموسم العودة إلى أرض الوطن.

أخذت أدحرج حقائبي على إحدى العربات في الصالة رقم 3، وبعدما أنهيت إجراءات السفر، مررت عبر بوابة المغادرة، ثم قضيت المتبقي قبل الإقلاع في التجول في السوق الحرة، وعندما حان موعد إقلاع الطائرة، توجهت صوب بوابة الخطوط السعودية، ركب جميع المسافرين، ثم أقلعت الطائرة في رحلة تستغرق ست ساعات. أطلت عبر النافذة، فرأيت لندن بدأت تتوارى عن ناظري شيئاً فشيئاً خلف ضبابها الرمادي الداكن المعتاد، لندن التي تعلمت منها الانضباط واحترام المواعيد، لندن التي منحتني وعبر رحلة إلى المجهول منها ومن شخصيتي، أن أكتشفها وأكتشف من أنا، لندن التي عودتني على الاعتماد على نفسي، على تحمل الآلام، وأنا غريب وحيد أمشي بين طرقاتها وناسها، ترى ماذا سيفعل الزمن بذكريات المرض والحنين والشوق للأهل؟ ماذا سيفعل بدموعي التي سقطت رغماً عني في يوم بل في لحظات حزن وأنا غريب هنا؟ ماذا سيبقي لي من أيام الضحكات عندما كنت أنا والأصدقاء نمشي عبر شارع (البيكاديللي) أو ميدان الطرف الأغر؟ أدركت في هذه اللحظة فقط أن للندن ألف وجه، وأنها منحتني أجمل وجه.

أعلن أحد قائد الطائرة أن علينا ربط الأحزمة استعداداً للهبوط، شعرت بأن الطيار اختصر الطريق، وكأن الزمان أراد أن يصالحني هذه المرة، وعند خروجي من صالة القدوم الدولية بمطار الملك خالد، شاهدت أبي، قبلت رأسه بحرارة، عانقت إخوتي، تذكرت يوم وداعي لهم في بداية البعثة، فبدت هذه الأحداث والذكريات والمواقف المتقلبة بين الحزن والفرح والمرض وكأني عشت أيامها بين عشية أو ضحاها، أو أنها كانت مجرد حلم لتوي أستفيق منه.